سورة الزمر

مكية، إلاّ قوله: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا...﴾ الآية، وتسمى سور الغرف، وهي خمس وسبعون آية. وقيل: ثنتان وسبعون آية [نزلت بعد سورة سبأ]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴿٣﴾ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ قرئ بالرفع على أنه مبتدأ أخبر عنه بالظرف، أو خبر مبتدإ محذوف والجار صلة التنزيل، كما تقول: نزل من عند الله، أو غير صلة، كقولك: هذا الكتاب من فلان إلى فلان، فهو على هذا خبر بعد خبر. أو خبر مبتدإ محذوف، تقديره: هذا تنزيل الكتاب، هذا من الله، أو حال من التنزيل عمل فيها معنى الإشارة، وبالنصب على إضمار فعل، نحو: اقرأ، والزم. فإن قلت: ما المراد بالكتاب؟ قلت: الظاهر على الوجه الأول أنه القرآن، وعلى الثاني: أنه السورة. ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ ممحضاً له الدين من الشرك والرياء بالتوحيد وتصفية السر. وقرئ: «الدين» بالرفع. وحق من رفعه أن يقرأ مخلصاً ـ بفتح اللام ـ كقوله تعالى: ﴿وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٦] حتى يطابق قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ والخالص والمخلص: واحد، إلاّ أن يصف الدينَ بصفة صاحبه على الإسناد المجازي. كقولهم: شعر شاعر، وأما من جعل ﴿مُخۡلِصٗا﴾ حالاً من العابد، و ﴿لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ مبتدأ وخبراً، فقد جاء بإعراب رجع به الكلام إلى قولك: لله الدين ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ أي: هو الذي وجب اختصاصه بأن تخلص له الطاعة من كل شائبة كدر؛ لاطلاعه على الغيوب والأسرار، ولأنه الحقيق بذلك؛ لخلوص نعمته عن استجرار المنفعة

بها. وعن قتادة: الدين الخالص شهادة أن لا إله إلا الله. وعن الحسن: الإسلام. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ يحتمل المتخذِين وهم الكفرة، والمتخذين وهم الملائكة وعيسى واللات والعزّى، عن ابن عباس رضي الله عنهما، فالضمير في ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ على الأوّل راجع إلى الذين، وعلى الثاني إلى المشركين، ولم يجر ذكرهم لكونه مفهوماً، والراجع إلى الذين محذوف، والمعنى: والذين اتخذهم المشركون أولياء، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ في موضع الرفع على الابتداء. فإن قلت: فالخبر ما هو؟ قلت: هو على الأوّل إما ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أو ما أضمر من القول قبل قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾. وعلى الثاني: أن الله يحكم بينهم. فإن قلت: فإذا كان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ الخبر، فما موضع القول المضمر؟ قلت: يجوز أن يكون في موضع الحال، أي: قائلين ذلك. ويجوز أن يكون بدلاً من الصلة فلا يكون له محلّ، كما أنّ المبدل منه كذلك. وقرأ ابن مسعود بإظهار القول. «قالوا ما نعبدهم» وفي قراءة أبيّ: «ما نعبدكم ٢/١٤١ب إلا لتقربونا» على الخطاب، حكاية لما خاطبوا به آلهتهم. وقرئ: «نعبدهم» بضم النون إتباعاً للعين كما تتبعها الهمزة في الأمر، والتنوين في ﴿وَعَذَابٍ ۝٤١ ٱرْكُضْ﴾ [ص: ٤١ ـ ٤٢] والضمير في ﴿بَيْنَهُمْ﴾ لهم ولأوليائهم. والمعنى: إن الله يحكم بينهم بأنه يدخل الملائكة وعيسى الجنة، ويدخلهم النار مع الحجارة التي نحتوها وعبدوها من دون الله يعذبهم بها؛ حيث يجعلهم وإياها حصب جهنم. واختلافهم: أن الذين يعبدون موحدون وهم مشركون، وأولئك يعادونهم ويلعنونهم، وهم يرجون شفاعتهم وتقريبهم إلى الله زلفى. وقيل: كان المسلمون إذا قالوا لهم: من خلق السمٰوات والأرض؟ أقرّوا وقالوا: الله، فإذا قالوا لهم: فما لكم تعبدون الأصنام؟ قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى؛ فالضمير في ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عائد إليهم وإلى المسلمين. والمعنى: إن الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين، والمراد بمنع الهداية: منع اللطف تسجيلاً عليهم بأن لا لطف لهم، وأنهم في علم الله من الهالكين[1]. وقرئ: «كذاب وكذوب»، وكذبهم: قولهم في بعض من اتخذوا من دون الله أولياء: بنات الله؛ ولذلك عقبه محتجاً عليهم بقوله: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ يعني: لو أراد اتخاذ الولد لامتنع ولم يصحّ؛ لكونه محالاً ولم يتأت إلا أن يصطفي من خلقه بعضه ويختصّهم ويقربهم، كما يختص الرجل ولده ويقربه. وقد فعل

(١) قال محمود: «المراد بمنع الهداية منع اللطف تسجيلاً عليهم بأن لا يلطف بهم، وأنه في علمه من الهالكين» قال أحمد: مذهب أهل السنة حمل هذه الآية وأمثالها على الظاهر، فإن معتقدهم أن معنى هداية الله تعالى للمؤمن خلق الهدى فيه، ومعنى إضلاله للكافر إزاحته عن الهدى وخلق الكفر له، ومع ذلك فيجوز عند أهل السنة أن يخلق الله تعالى للكافر لطفاً يؤمن عنده طائعاً، خلافاً للقدرية. وغرضنا التنبيه على مذهب أهل الحق لا غيره.

ذلك بالملائكة فافتتنتم به وغركم اختصاصه إياهم، فزعمتم أنهم أولاده، جهلاً منكم به وبحقيقته المخالفة لحقائق الأجسام والأعراض، كأنه قال: لو أراد اتخاذ الولد لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما يشاء من خلقه وهم الملائكة، إلا أنكم لجهلكم به حسبتم اصطفاءهم اتخاذهم أولاداً، ثم تماديتم في جهلكم وسفهكم فجعلتموهم بنات، فكنتم كذابين كفارين متبالغين في الافتراء[1] على الله وملائكته، غالبين[2] في الكفر، ثم قال: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ فنزه ذاته عن أن يكون له أحد ما نسبوا إليه من الأولاد والأولياء. ودلّ على ذلك بما ينافيه، وهو أنه واحد، فلا يجوز أن يكون له صاحبة؛ لأنه لو كانت له صاحبة لكانت من جنسه ولا جنس له؛ وإذا لم يتأت أن يكون له صاحبة لم يتأت أن يكون له ولد، وهو معنى قوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]. وقهار: غلاب لكل شيء، ومن الأشياء آلهتهم، فهو يغلبهم، فكيف يكونون له أولياء وشركاء؟.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٥﴾﴾

ثم دلّ بخلق السمٰوات والأرض، وتكوير كل واحد من الملوين على الآخر، وتسخير النيرين، وجريهما لأجل مسمى، وبثّ الناس على كثرة عددهم من نفس واحدة، وخلق الأنعام على أنه واحد لا يشارك، قهار لا يغالب. والتكوير: اللف واللي، يقال: كار العمامة على رأسه وكوّرها. وفيه أوجه منها: أن الليل والنهار خِلْفَة يذهب هذا ويغشى مكانه هذا، وإذا غشي مكانه فكأنما ألبسه ولف عليه كما يلف اللباس على اللابس. ومنه قول ذي الرمة في وصف السراب [من البسيط]:

تَلْوِي الثَّنَايَا بِأَحْقِيْهَا حَوَاشِيَهُ ... لَيَّ الْمُلَاءِ بِأَبْوَابِ التَّفَارِيجِ[3]

---

(١) قوله: «متبالغين في الافتراء» لعله: مبالغين. (ع).

(٢) قوله: «غالبين في الكفر» لعله: غالين. (ع).

(٣) وراكد الشمس أجاج نصبت له ... حواجب القوم بالمهرية العوج
إذا تنازع جالاً مجهل قذف ... أطراف مطرد بالحز منسوج
تلوي الثنايا بأحقيها حواشيه ... لي الملاء بأبواب التفاريج
كأنه والرهاة المرت يركضه ... أعراف أزهر تحت الريح منتوج

لذي الرمة يصف السراب، وراكد الشمس: ما يتساقط منها على الأرض. والأجاج: صفة مبالغة، أي: كثير الأجيج، يقال: أجت النار أجيجاً: اشتعلت، والحر: اشتد. وأج الظليم أجاً: أسرع وله حفيف. وأج الأمر: اختلط. والأج: طير أبيض سريع الطيران يشبه النعام. ويرى السراب عند شدة الحر أبيض كأنه يسير، فيجوز أنه من الأولين. ويجوز أنه منسوب للأخير؛ لأنه يشبهه، واللام للتوقيت، والقواضب: السيوف القواطع. والمهرية: الخيل المنسوبة لمهر بن حيدان أبي قبيلة من =

ومنها أن كل واحد منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه، فشبه في تغييبه إياه بشيء ظاهر لف عليه ما غيبه عن مطامح الأبصار. ومنها: أن هذا يكر على هذا كروراً متتابعاً. فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على إثر بعض. ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب القادر على عقاب المصرين، ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ لذنوب التائبين[1]. أو الغالب الذي يقدر على أن يعاجلهم بالعقوبة وهو يحلم عنهم ويؤخرهم إلى أجل مسمى، فسمى الحلم عنهم: مغفرة.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾

فإن قلت: ما وجه قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وما يعطيه من معنى التراخي؟ قلت: هما آيتان[2] من جملة الآيات التي عدّدها دالاً على وحدانيته وقدرته: تشعيب هذا الخلق

= اليمن، خيلها أنجب الخيل. والعوج: جمع عوجاء نوع جيد منها أيضاً. والحالان: ارتفاع الأرض وانخفاضها. والمجهل: الموضع الذي يجهله المسافر. والقذف ـ كسبب ـ: الذي يقذف ما فيه فلا أحد فيه. والمطرد: السراب المستوي، شبه بالخز المنسوج في الاستواء والبياض. والثنايا: العقبات. والحقو: الخصر والإزار، وشده عليه استعارة لجانب العقبة، وحواشي السراب: جوانبه، والملاء بالضم والمد: اسم جمع ملاءة وهي الجلباب. والتفراج: الباب الصغير والثوب من الديباج. والرهاة ـ جمع رهو ـ: المكان المرتفع، ويطلق على المنخفض أيضاً. وقيل: اسم موضع. والموت: القفر. والركض: ضرب الدابة بالرجل والضرب مطلقاً، وهو هنا مجاز على طريق التصريحية. والأعراف: جمع عرف. وعرف الديك والفرس: أعلى شعر العنق، وأعرف البحر والسيل: إذا تراكم موجه وارتفع كالأعراف، والأزهر: السحاب الأبيض والماء الأبيض، وهو الأنسب بكونه تحت الريح؛ لأن ظاهر الأول يخالف قوله تعالى: ﴿أَقَلَّتْ سَحَابًا﴾ والمنتوج: الذي تنتجه الريح وتسوقه حتى يقطر، يقول: ورب راكد من الشمس، يعني السراب الشديد الحر أو السير، نصبت مستقبلا لوقته سيوف قومي مع الخيل الجياد إذا تجاذب المنخفض والمرتفع من الأرض القفرة أطراف الآل وهو السراب، وشبه إحاطة جوانبه وتراكمه في جوانب العقبة بلي الجلباب في أبواب التفاريج، وتلوى: يحتمل أنه جواب ذا وأنه صفة لمطرد وجوابها، دل عليه ما قبلها وأسند اللي للثنايا؛ لأنها سبب الالتواء، ولي الملاء: مفعول مطلق، وأعراف: خبر كأنه، والرهاة: جملة حالية، وفاعل يركض إما ضمير الآل أو ضمير الرهاة؛ لأنهما كأنهما يتضاربان. وروي: تطرده، وفاعله ضمير الرهاة جزماً؛ لأن الآل هو المطرود، وبيت الكشاف: يلوي الثنايا بأحقيها. والحقو: جمعه أحق، وأصل وزنه: أفعل.

ينظر: ديوانه ٩٩٠، ولسان العرب: (حقا)، وكتاب العين: ٣/ ٢٥٤، وجمهرة اللغة ص ٥٦٢، وتهذيب اللغة، ٥/ ١٢٤، وخزانة الأدب: ٤/ ١١٠، وتاج العروس (حقا).

(١) قال محمود: «أي لذنوب التائبين» قال أحمد: الحق أنه تعالى غفار للتائبين ولمن يشاء من المصرين على ما دون الشرك وقنوطهم من رحمة الله تعالى. ولقد قيد الزمخشري الآية بما ترى.

(٢) قال محمود: «فإن قلت: ما وجه العطف بثم في قوله: (ثم جعل)؟ وأجاب بأنهما آيتان... إلخ» =

الفائت للحصر من نفس آدم، وخلق حواء من قصيريه، إلا أن إحداهما جعلها الله عادة مستمرّة، والأخرى لم تجربها العادة، ولم تخلق أنثى غير حواء من قصيرى رجل، فكانت أدخل في كونها آية، وأجلب لعجب السامع، فعطفها بثم على الآية الأولى؛ للدلالة على مباينتها لها فضلاً ومزية، وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية، فهو من التراخي في الحال والمنزلة، لا من التراخي في الوجود. وقيل: ثم متعلق بمعنى واحدة، كأنه قيل: خلقكم من نفس وحدت، ثم شفعها ٢/ ١٤٢أ الله بزوج. وقيل: أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر، ثم خلق بعد ذلك حواء. ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ وقضى لكم وقسم؛ لأنّ قضاياه وقسمه موصوفة بالنزول[١] من السماء، حيث كتب في اللوح: كل كائن يكون. وقيل: لا تعيش الأنعام إلاّ بالنبات. والنبات لا يقوم إلاّ بالماء. وقد أنزل الماء، فكأنه أنزلها. وقيل: خلقها في الجنة، ثم أنزلها. ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ ذكراً وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز. والزوج: اسم لواحد معه آخر، فإذا انفرد فهو فرد ووتر. قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩﴾ [القيامة: ٣٩]. ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ حيواناً سويًّا، من بعد عظام مكسوة لحماً، من بعد عظام عارية، من بعد مضغ، من بعد علق، من بعد نطف. والظلمات الثلاث: البطن والرحم والمشيمة. وقيل: الصلب والرحم والبطن. ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي هذه أفعاله هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ . . . فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ فكيف يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره؟.

﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ عن إيمانكم وإنكم المحتاجون إليه؛ لاستضراركم بالكفر واستنفاعكم بالإيمان. ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ رحمة لهم؛ لأنه يوقعهم في الهلكة. ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي: يرض الشكر لكم؛ لأنه سبب فوزكم وفلاحكم؛ فإذن ما كره كفركم ولا رضي شكركم إلاّ لكم ولصلاحكم[٢]، لا لأنّ منفعة ترجع إليه؛ لأنه الغني الذي لا

= قال أحمد: إنما منعه من حمل ثم على التراخي في الوجود أنها وقعت بين خلق الذرية من آدم، وخلق حواء منه، وهو متقدم على الذرية فضلاً عن كونه متراخياً عن خلق الذرية، فلم يستقم حملها على تراخي الوجود لما جعلها في الوجه الآخر متعلقة بمعنى واحدة، على تقدير: خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها، يعني: شفعها بزوجها، فكانت ههنا على بابها لتراخي الوجود، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) قال محمود: «إنما جعلها منزلة؛ لأن قضاياه تعالى وقسمه موصوفة بالنزول. . . إلخ» قال أحمد: ومن هذا النمط بعينه قول الراجز: أسنمة الآبال في سحابة.

(٢) حمل الزمخشري الرضا على الإرادة، والعباد على العموم. . . إلخ» قال أحمد: إن المصر على هذا =

يجوز عليه الحاجة. ولقد تمحل بعض الغواة ليثبت لله تعالى[1] ما نفاه عن ذاته من الرضا لعباده الكفر فقال: هذا من العام الذي أريد به الخاص، وما أراد إلاّ عبادهُ الذين عناهم في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥] يريد: المعصومين، كقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، تعالى الله عما يقول الظالمون، وقرئ: «يرضهُ» بضم الهاء بوصل وبغير وصل، وبسكونها. ﴿خَوَّلَهُ﴾ أعطاه. قال أبو النجم [من الرجز]:

أَعْـطَـى فَـلَـمْ يَـبْـخَـلْ وَلَـمْ يُـبَـخَّـلِ كُـومَ الـذُّرَى مِـنْ خِـوَلِ الْـمُـخَـوِّلِ[2]

= المعتقد على قلبه رين، أو في ميزان عقله غين، أليس يدعي أو يدعى له أنه الخريت في مغاثر العبارات، وبديع الزمان في صناعة البديع، فكيف نبا عن جادة الإجادة فهمًا، وأعار منادي الحذافة أذنًا صمًا، اللهم إلا أن يكون الهوى إذا تمكن أرى الباطل حقًا، وغطى سني مكشوف العبارة فسحقا سحقاً، أليس مقتضى العربية فضلاً عن القوانين العقلية أن المشروط مرتب على الشرط، لا يتصور وجود المشروط قبل الشرط عقلاً، ولا مضيه واستقبال الشرط لغة وعقلاً، واستقر باتفاق الفريقين أهل السنة وشيع البدعة: أن إرادة الله تعالى لشكر عباده مثلاً مقدمة على وجود الشكر منهم، فحينئذ كيف ساغ حمل الرضا على الإرادة، وقد جعل في الآية مشروطاً وجزاء، وجعل وقوع الشكر شرطاً ومجزياً، واللازم من ذلك عقلاً: تقدم المراد وهو الشكر، على الإرادة وهي الرضا، ولغة: تقدم المشروط على الشرط. والزمخشري أخص من قال: إن المشروط متى كان ماضياً محضاً لزمته الفاء وقد، كقولك: إن تكرمني فقد أكرمتك قبل، وقد عريت الآية عن الحرفين المذكورين، على أنه لا بد من تأويل يصحح الشرطية مع ذلك، فإذا ثبت بطلان حمل الرضا على الإرادة عقلاً ونقلاً، تعين التماس المحمل الصحيح له، وهو المجازاة على الشكر بما عهد أن يجازى به المرضى عنه من الثواب والكرامة، فيكون معنى الآية ـ والله أعلم ـ: وإن تشكروا يجازكم على شكركم جزاء المرضى عنه، ولا شك أن المجازاة مستقبلة بالنسبة إلى الشكر، فجرى الشرط والجزاء على مقتضاهما لغة، وانتظم ذلك بمقتضى الأدلة العقلية على بطلان تقدم المراد على الإرادة عقلاً، ومثل هذا يقدر في قوله: (ولا يرضى لعباده الكفر) أي: لا يجازي غير الكافر مجازاة المغضوب عليه من النكال والعقوبة.

(١) قوله: «ليثبت لله تعالى... إلخ» إنما يتم لو كان الرضاء بمعنى الإرادة، وهو مذهب المعتزلة. وعند أهل السنة: هو غيرها، فكفر الكافر مراد غير مرضي، وعند المعتزلة: غير مراد ولا مرضي. (ع).

(٢) الـحـمـد لله الـوهـوب الـمـجـزل أعـطـى فـلـم يـبـخـل ولـم يـبـخـل
كـوم الـذرى مـن خـول الـمـخـول

الوهوب: الوهاب. والمجزل: المكثر العطاء، وبينه بقوله: أعطى السائلين فلم يبخل عليهم، ولم يبخل: مشدد مبني للمجهول، أي: لم يتهم بالبخل. وقيل: هو توكيد. ويروى بناؤه للفاعل، أي لم يجعل من أعطاهم بخلاء، بل جعلهم كرماء. وكوم الذرى: نصب بأعطى، أي: نوقاً عظيمات السنام. والكوم: جمع كوماء. والذرى: جمع ذروة. والمخول بالتشديد المعطي، وهو الله عز وجل.

ينظر لسان العرب: (بقل)، (خول)، وتهذيب اللغة: ٧/ ٥٦٤، ومجمل اللغة: ٢/ ٢٨١، وأساس البلاغة: (خول)، وتاج العروس: (خول)، والطرائف الأدبية ص ٥٧.

وفي حقيقته وجهان، أحدهما: جعله خائل مال، من قولهم: هو خائل مال، وخال مال: إذا كان متعهداً له حسن القيام به، ومنه ما روي عن رسول الله ﷺ: أنه كان يتخول أصحابه بالموعظة (١٣٣٤). والثاني: جعله يخول من خال يخول إذا اختال وافتخر، وفي معناه قول العرب [من البسيط]:

.... إِنَّ الْـغَـنِـيَّ طَـوِيـلُ الـذَّيْـلِ مَـيَّـاسُ

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾

﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي نسي الضرّ الذي كان يدعو الله إلى كشفه. وقيل: نسي ربه الذي كان يتضرع إليه ويبتهل إليه، و﴿ما﴾ بمعنى من، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [الليل: ٣] وقرئ: ﴿ليضل﴾ بفتح الياء وضمها، بمعنى أنّ نتيجة جعله لله أنداداً ضلاله عن سبيل الله أو إضلاله والنتيجة: قد تكون غرضاً في الفعل، وقد تكون غير غرض. وقوله: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾ من باب الخذلان والتخلية، كأنه قيل له: إذ قد أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة، فمن حقك ألا تؤمر به بعد ذلك، وتؤمر بتركه؛ مبالغة في خذلانه وتخليته وشأنه؛ لأنه لا مبالغة في الخذلان؛ لأنه أشدّ من أن يبعث على عكس ما أمر به، ونظيره في المعنى قوله: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [آل عمران: ١٩٧].

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾

قرئ: «أمن هو قانت» بالتخفيف على إدخال همزة الاستفهام على من، وبالتشديد

١٣٣٤ ـ أخرجه البخاري (١/٢١٨)، كتاب العلم، باب: «ما كان النبي ﷺ يتخولهم...» رقم (٦٨)، (١/٢٢٠، ٢٢١)، كتاب العلم، باب: من جعل لأهل العلم أياماً معلومة، رقم (٧٠).
(١٢/ ٥٣٠ ـ ٥٣١)، كتاب الدعوات، باب: الموعظة ساعة بعد ساعة، رقم (٦٤١١).
ومسلم (٩/ ١٧٩)، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب: الاقتصاد في الموعظة، رقم (٨٢) ـ (٢٨٢١). والترمذي (٥/ ١٤٢)، كتاب الأدب، باب: ما جاء في الفصاحة والبيان، رقم (٢٨٥٥).
وأحمد (١/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨، ٤٢٥، ٤٤٠، ٤٤٣، ٤٦٢) رقم (٤٥٢٤) وابن حبان (١٠/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣)، كتاب السير، باب: الخلافة والإمارة كلهم من طريق أبي وائل عن ابن مسعود، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح،

على إدخال ﴿أَمْ﴾ عليه. و﴿من﴾ مبتدأ خبره محذوف، تقديره: أمن هو قانت كغيره، وإنما حذف لدلالة الكلام عليه، وهو جري ذكر الكافر قبله. وقوله بعده: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقيل: معناه أمن هو قانت أفضل أمن هو كافر. أو أهذا أفضل أمن هو قانت على الاستفهام المتصل. والقانت: القائم بما يجب عليه من الطاعة. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «أفضل الصلاة طول القنوت» (١٣٣٥)، وهو القيام فيها. ومنه القنوت في الوتر؛ لأنه دعاء المصلي قائماً ﴿سَاجِدًا﴾ حال. وقرئ: «ساجد وقائم» على أنه خبر بعد خبر، والواو للجمع بين الصفتين. وقرئ: «ويحذر عذاب الآخرة». وأراد بالذين يعلمون: العاملين من علماء الديانة، كأنه جعل من لا يعمل غير عالم. ٢/١٤٢ب وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم، ثم لا يقنتون، ويفتنون، ثم يفتنون بالدنيا، فهم عند الله جهلة، حيث جعل القانتين هم العلماء، ويجوز أن يرد على سبيل التشبيه، أي: كما لا يستوي العالمون والجاهلون، كذلك لا يستوي القانتون والعاصون. وقيل: ونزلت في عمار بن ياسر رضي الله عنه وأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي. وعن الحسن أنه سئل عن رجل يتمادى في المعاصي ويرجو[(١)]، فقال: هذا تمنٍّ وإنما الرجاء قوله، وتلا هذه الآية.

١٣٣٥ ـ أخرجه مسلم ١/٥٣٠ في صلاة المسافرين، باب أفضل الصلاة طول القنوت (١٦٤ ـ ١٦٥/ ٧٥٦)، والترمذي ٢/٢٢٩ في أبواب الصلاة، باب ما جاء في طول القيام في الصلاة (٣٨٧)، وابن ماجه ١/٤٥٦ في إقامة الصلاة، باب ما جاء في طول القيام في الصلوات (١٤٢١)، وأحمد ٣/٣٠٢، ٣٩١، والحميدي برقم (١٢٧٦)، والطيالسي ١/٢٤ برقم (٢٩)، وأبو يعلى (٢١٣١): . . . عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ، أفضل الصلاة طول القنوت».

وفي رواية سئل رسول الله ﷺ: أي الصلاة أفضل؟ قال: طول القنوت، وقال النووي في شرح مسلم ٢/٤٠٦: المراد بالقنوت هنا القيام باتفاق العلماء فيما علمت وقال أبو بكر بن العربي في عارضة الأحوذي ٢/١٧٨ ـ ١٧٩: تتبعت موارد القنوت فوجدتها عشرة: الطاعة، والعبادة، ودوام الطاعة: والصلاة، والقيام، وطول القيام والدعاء، والخشوع، والسكوت، وترك الالتفات، وكلها محتملة. أولاها: السكوت والخشوع والقيام. وأحدها في هذا الحديث القيام. وهو في النافلة بالليل أفضل، والسجود والركوع بالنهار أفضل.

وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه مسلم من طريق أبي الزبير عن جابر، ورواه الطحاوي من هذا الوجه بلفظ «طول القيام» وكذا هو في حديث عبد الله بن جعفر بلفظ «سئل أي الصلاة أفضل؟ قال: طول القيام. انتهى».

---

(١) قال محمود: «سئل الحس عمن يتمادى على المعاصي ويرجو. . . إلخ» قال أحمد: كلام الحسن رضي الله عنه صحيح غير منزل على كلام الزمخشري بقرينة حاله، فإن الحسن أراد أن المتمادي على المعصية مصرًا عليها غير تائب إذا غلب رجاؤه خوفه كان متمنيًا، لأن اللائق بهذا أن يغلب خوفه رجاءه، ولم يرد الحسن إقناط هذا من رحمة الله تعالى وحاشاه، وأما قرينه حال الزمخشري فإنها تنم على ما أضمره من إيراد هذه المقالة؛ فإن معتقده أن مثل هذا العاصي وإن كان موحدًا =

وقرئ: «إنما يذَّكر» بالإدغام.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾

﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ متعلق بأحسنوا لا بحسنة، معناه: الذين أحسنوا في هذه الدنيا فلهم حسنة في الآخرة. وهي دخول الجنة، أي: حسنة غير مكتنهة بالوصف. وقد علقه السدي بحسنة، ففسر الحسنة بالصحة والعافية. فإن قلت: إذا علق الظرف بأحسنوا فإعرابه ظاهر، فما معنىٰ تعليقه بحسنة؟ ولا يصحّ أن يقع صفة لها لتقدمه. قلت: هو صفة لها إذا تأخر، فإذا تقدم كان بياناً لمكانها فلم يخل التقدم بالتعلق، وإن لم يكن التعلق وصفاً، ومعنى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ أن لا عذر للمفرطين في الإحسان البتة؛ حتى إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم، وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفر على الإحسان، وصرف الهمم إليه قيل لهم: فإن أرض الله واسعة وبلاده كثيرة، فلا تجتمعوا مع العجز، وتحوّلوا إلى بلاد أخر، واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم؛ ليزدادوا إحساناً إلى إحسانهم وطاعة إلى طاعتهم. وقيل: هو للذين كانوا في بلد المشركين فأمروا بالمهاجرة عنه، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]. وقيل: هي أرض الجنة. و ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ الذين صبروا على مفارقة أوطانهم وعشائرهم، وعلى غيرها. من تجرّع الغصص واحتمال البلايا في طاعة الله وازدياد الخير ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا يحاسبون عليه. وقيل: بغير مكيال وغير ميزان يغرف لهم غرفاً، وهو تمثيل للتكثير. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يُهتدىٰ إليه حساب الحساب ولا يُعرف. وعن النبيّ ﷺ: «ينصب الله الموازين يوم القيامة فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين. ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان، ويصب عليهم الأجر صبًّا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أنَّ أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل» (١٣٣٦).

١٣٣٦ ـ أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/١٨٢ ـ ١٨٣)، رقم (١٢٨٢٩) وأبو نعيم في الحلية (٣/٩١) في ترجمة (جابر بن زيد) كلاهما من طريق قتادة عن جابر بن زيد.

وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/٢٠٠ ـ ٢٠١) للثعلبي في تفسيره، ولأبي القاسم =

= يجب خلوده في نار جهنم، ولا معنى لرجائه، ولتنميته صحة هذا المعتقد أورد مقالة الحسن، كالتزام إلى تتميم هذه النزعة، وعما قليل يقرع سمعه ما في أنباء هذه السورة.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ
أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن
دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ
ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾ بإخلاص الدين ﴿وَأُمِرْتُ﴾ بذلك ﴿لِ﴾ أجل ﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي مقدمهم وسابقهم في الدنيا والآخرة، والمعنى: أنّ الإخلاص له السبقة في الدين، فمن أخلص كان سابقاً. فإن قلت: كيف عطف ﴿أُمِرْتُ﴾ على ﴿أُمِرْتُ﴾ وهما واحد[1]؟ قلت: ليسا بواحد لاختلاف جهتيهما، وذلك أنّ الأمر بالإخلاص وتكليفه شيء، والأمر به ليحرز القائم به قصب السبق في الدين شيء، وإذا اختلف وجها الشيء وصفتاه ينزل بذلك منزلة شيئين مختلفين، ولك أن تجعل اللام مزيدة مثلها في أردت لأن أفعل، ولا تزاد إلا مع أن خاصة دون الاسم الصريح، كأنها زيدت عوضاً من ترك الأصل إلى ما يقوم مقامه، كما عوّض السين في اسطاع عوضاً من ترك الأصل الذي هو أطوع، والدليل على هذا الوجه مجيئه بغير لام في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤]، ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [الأنعام: ١٤] وفي معناه أوجه: أن أكون أوّل من أسلم في زماني ومن قومي؛ لأنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها، وأن أكون أوّل الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاماً، وأن أكون أول من دعا نفسه إلى ما دعا إليه غيره؛ لأكون مقتدى بي في قولي وفعلي جميعاً، ولا تكون

= الأصبهاني في كتاب الترغيب والترهيب ولابن مردوية في تفسيره، وقال أبو نعيم: هذا حديث غريب من حديث جابر، وقتادة تفرد به عنه مجاعة وقال الحافظ ابن حجر في الكشاف: أخرجه الثعلبي وابن مردويه، من حديث أنس رضي الله عنه، وإسناده ضعيف جداً، وأورده أبو نعيم في الحلية في ترجمة جابر بن زيد عن الطبراني، وهو في معجمه بإسناده إلى قتادة عن جابر بن زيد عن ابن عباس رضي الله عنهما مختصراً. انتهى.

(١) قال محمود: «فإن قلت: كيف عطف أمرت على أمرت وهما راحد؟ وأجاب بأنه ليس بتكرير... إلخ» قال أحمد: ولقد أحسن في تقوية هذا المعنى في هذه الآية بقوله: (فاعبدوا ما شئتم من دونه) فإن مقابلته بعدم الحصر توجب كونه للحصر، والله أعلم. وما أحسن ما بين وجوه المبالغة في وصف الله تعالى؛ لفظاعة خسرانهم، فقال: استأنف الجملة وصدرها بحرف التنبيه، ووسط الفصل بين المبتدإ والخبر، وعرف الخسران ونعته بالمبين، وبين في تسمية الشيطان طاغوتًا وجوهاً ثلاثة من المبالغة، أحدها: تسميته بالمصدر كأنه نفس الطغيان. الثاني: بناؤه على فعلوت، وهي صيغة مبالغة كالرحموت، وهي الرحمة الواسعة والملكوت وشبهه. الثالث: تقديم لامه على عينه؛ ليفد اختصاص الشيطان بهذه التسمية.

صفتي صفة الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون، وأن أفعل ما أستحق به الأوّلية من أعمال السابقين دلالة على السبب بالمسبب، يعني: أن الله أمرني أن أخلص له الدين من الشرك والرياء وكلّ شوب، بدليلي العقل والوحي. فإن عصيت ربي بمخالفة الدليلين، استوجبت عذابه فلا أعصيه ولا أتابع أمركم، وذلك حين دعوه إلى دين آبائه. فإن قلت: ما معنى التكرير في قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾﴾ وقوله: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾﴾؟ قلت: ليس بتكرير؛ لأنّ ٢/١٤٣أ الأوّل إخبار بأنه مأمور من جهة الله بإحداث العبادة والإخلاص. والثاني: إخبار بأنه يختص الله وحده دون غيره بعبادته مخلصاً له دينه، ولدلالته على ذلك قدّم المعبود على فعل العبادة وأخره في الأوّل، فالكلام أوّلاً واقع في الفعل نفسه وإيجاده، وثانياً فيمن يفعل الفعل لأجله؛ ولذلك رتب عليه قوله: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ والمراد بهذا الأمر الوارد على وجه التخيير: المبالغة في الخذلان والتخلية، على ما حققت فيه القول مرتين. قل إنّ الكاملين في الخسران الجامعين لوجوهه وأسبابه هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ لوقوعها في هلكة لا هلكة بعدها، (و) خسروا ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوع بعده إليهم. وقيل: وخسروهم[1] لأنهم لم يدخلوا مدخل المؤمنين الذين لهم أهل في الجنة، يعني: وخسروا أهليهم الذين كانوا يكونون لهم لو آمنوا، ولقد وصف خسرانهم بغاية الفظاعة في قوله: ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ حيث استأنف الجملة وصدرها بحرف التنبيه، ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر، وعرف الخسران ونعته بالمبين.

﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَمِنْ تَحْتِهِمْ﴾ أطباق من النار هي ﴿ظُلَلٌ﴾ لآخرين. ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب هو الذي يتوعد الله ﴿بِهِ عِبَادَهُ﴾ ويخوفهم؛ ليجتنبوا ما يوقعهم فيه، ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ فلا تتعرّضوا لما يوجب سخطي، وهذه عظة من الله تعالى ونصيحة بالغة. وقرئ: «يا عبادي».

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾

﴿الطَّاغُوتَ﴾ فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت، إلا أن فيها قلباً بتقديم اللام على العين، أطلقت على الشيطان أو الشياطين؛ لكونها مصدراً وفيها مبالغات، وهي

---

(١) قوله: «وخسروهم» لعله «خسروهم» بدون واو. (ع).

التسمية بالمصدر، كأن عين الشيطان طغيان، وأنّ البناء بناء مبالغة، فإنّ الرحموت: الرحمة الواسعة، والملكوت: الملك المبسوط، والقلب هو للاختصاص؛ إذ لا تطلق على غير الشيطان، والمراد بها ههنا الجمع. وقرئ: «الطواغيت» ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ بدل من الطاغوت بدل الاشتمال، ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ هي البشارة بالثواب، كقوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤] الله عزّ وجلّ يبشرهم بذلك في وحيه على ألسنة رسله، وتتلقاهم الملائكة عند حضور الموت مبشرين، وحين يحشرون، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ﴾ [الحديد: ١٢] وأراد بعباده ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ الذين اجتنبوا وأنابوا لا غيرهم، وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة، فوضع الظاهر موضع الضمير، وأراد أن يكونوا نقاداً في الدين يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل والأفضل، فإذا اعترضهم أمران: واجب وندب، اختاروا الواجب، وكذلك المباح والندب، حرّاصاً على ما هو أقرب عند الله وأكثر ثواباً، ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها على السبك وأقواها عند السبر[1]، وأبينها دليلاً أو أمارة، وأن لا تكون في مذهبك، كما قال القائل [من البسيط]:

.... وَلاَ تَكُنْ مِثْلَ عَيْرٍ قِيدَ فَانْقَادَا[2]

يريد المقلد، وقيل: يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن. وقيل: يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها، نحو: القصاص والعفو، والانتصار والإغضاء، والإبداء والإخفاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ [البقرة: ٢٧١] وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساو، فيحدّث بأحسن ما سمع ويكف عما سواه. ومن الوقفة من يقف على قوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ ويبتدىء: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ﴾ يرفعه على الابتداء، وخبره ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾.

---

(١) قال محمود: «يدخل تحت هذا المذاهب واختيار أثبتها على السبك وأقواها عند السبر... إلخ» قال أحمد: لقد كنت أطمع لعله رجع عما ضمن هذا الكتاب من المذاهب الرديئة والمعتقدات الفاسدة، حتى حققت من كلامه هذا أن ذلك التصميم كان متمكناً من فؤاده الصميم، فلا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

(٢) شمّر وكن في أمور الدين مجتهداً ... ولا تكن مثل عير قيد فانقادا
للزمخشري: تشمير الثياب عن الساعد: كناية عن ترك الكسل، ثم قال: واجتهد في أحكام الدين ولا تقلد غيرك، فتكون مثل حمار قاده الشخص فانقاد وطاوعه أينما يوجهه. ويحتمل أن المعنى: اجتهد في العمل ولا تطع الشيطان.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾

أصل الكلام: أمَن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه، جملة شرطية دخل عليها همزة الإنكار، والفاء فاء الجزاء، ثم دخلت الفاء التي في أوّلها للعطف على محذوف يدلّ عليه الخطاب، تقديره: أأنت مالك أمرهم، فمن حقّ عليه العذاب فأنت تنقذه، والهمزة الثانية هي الأولى، كرّرت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد، ووضع ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ موضع الضمير، فالآية على هذا جملة واحدة. ووجه آخر: وهو أن تكون الآية جملتين: أفمن حق عليه العذاب فأنت تخلّصه؟ ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾؟ ٢/١٤٣ب وإنما جاز حذف: فأنت تخلصه؛ لأن ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ يدل عليه، نزل استحقاقهم العذاب وهم في الدنيا منزلة دخولهم النار، حتى نزّل اجتهاد رسول الله ﷺ وكدّه نفسه في دعائهم إلى الإيمان في منزلة إنقاذهم من النار. وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ يفيد أنّ الله تعالى هو الذي يقدر على الإنقاذ من النار وحده، لا يقدر على ذلك أحد غيره، فكما لا تقدر أنت أن تنقد الداخل في النار من النار، لا تقدر أن تخلصه مما هو فيه من استحقاق العذاب بتحصيل الإيمان فيه.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ علا بعضها فوق بعض. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾؟ قلت: معناه ـ والله أعلم ـ: أنها بنيت بناء المنازل التي على الأرض وسوّيت تسويتها، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ كما تجري تحت المنازل، من غير تفاوت بين العلوّ والسفل، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد؛ لأنّ قوله لهم غرف في معنى: وعدهم الله ذلك.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو المطر. وقيل: كل ماء في الأرض فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة، ثم يقسمه الله، ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ فأدخله ونظمه ﴿يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عيوناً ومسالك ومجاري كالعروق في الأجساد. ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ هيئاته من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك، وأصنافه من برّ وشعير وسمسم وغيرها، ﴿يَهِيجُ﴾ يتمّ جفافه، عن الأصمعي؛ لأنه إذا تمّ جفافه حان له أن يثور عن منابته ويذهب ﴿حُطَٰمًا﴾ فتاتاً ودريناً.[1] ﴿إِنَّ فِى

---

(١) قوله: «فتاتا ودرينا» في الصحاح «الدرين»: خطام المرعى إذا قدم، وهو ما يلي من الحشيش. (ع).

﴿لِذِكْرَىٰ﴾ لتذكيراً وتنبيهاً، على أنه لا بدّ من صانع حكيم، وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير، لا عن تعطيل وإهمال. ويجوز أن يكون مثلاً للدنيا، كقوله تعالى: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا﴾ [يونس: ٢٤]، ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٥]. وقرئ: «مصفارًّا».

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٢)﴾

﴿أَفَمَن﴾ عرف الله أنه من أهل اللطف فلطف به حتى انشرح صدره للإسلام ورغب فيه وقبله كمن لا لطف له فهو حرج الصدر قاسي القلب، ونور الله: هو لطفه، وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقيل: يا رسول الله، كيف انشراح الصدر؟ قال: «إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح»، فقيل: يا رسول الله، فما علامة ذلك؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للموت قبل نزول الموت» (١٣٣٧) وهو نظير قوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ [الزمر: ٩] في حذف الخبر. ﴿مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ من أجل ذكره، أي: إذا ذكر الله عندهم أو آياته اشمأزوا وازدادت قلوبهم قساوة، كقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]. وقرئ: «عن ذكر الله» فإن قلت: ما الفرق بين من وعن في هذا؟ قلت: إذا قلت: قسا قلبه من ذكر الله، فالمعنى ما ذكرت، من أن القسوة من أجل الذكر وبسببه، وإذا قلت: عن ذكر الله، فالمعنى: غلظ عن قبول الذكر وجفا عنه. ونظيره: سقاه من العيمة، أي من أجل عطشه، وسقاه عن العيمة: إذا أرواه حتى أبعده عن العطش.

١٣٣٧ ـ أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٤٢٣). كتاب الزهد، باب: ذكر الموت والاستعداد له، حديث (٤٢٥٩).
والحاكم (٤/ ٥٤٠)، كتاب: الفتن والملاحم، باب: ذكر خمس بلاء أعاذ النبي ﷺ منها المسلمين.
والطبراني في الصغير (٢/ ٨٧).
والبيهقي في الشعب (٧/ ٣٥١)، باب: في الزهد وقصر الأمل حديث (١٠٥٥٠). كلهم من حديث ابن عمر.
وذكره الترمذي الحكيم في نوادر الأصول (١/ ٥٢٥)، في الأصل السادس والثمانون.
وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٠٢) لابن مردويه في تفسيره من طريق أبي فروة يزيد بن محمد بن سنان الرهاوي عن أبيه عن جده، وقال الحافظ: أخرجه الثعلبي والحاكم والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود، وفيه أبو فروة الرهاوي فيه كلام، ورواه الترمذي الحكيم في النوادر في الأصل السادس والثمانين، وفي إسناده إبراهيم النخعي وهو ضعيف. انتهى.

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنّ أصحاب رسول الله ﷺ ملوا ملة، فقالوا له: حدثنا فنزلت، وإيقاع اسم الله مبتدأ وبناء ﴿نَزَّلَ﴾ عليه فيه: تفخيم لأحسن الحديث، ورفع منه، واستشهاد على حسنه، وتأكيد لاستناده إلى الله وأنه من عنده، وأن مثله لا يجوز أن يصدر إلاّ عنه، وتنبيه على أنه وحي معجز مباين لسائر الأحاديث. و ﴿كِتَٰبًا﴾ بدل من أحسن الحديث، ويحتمل أن يكون حالاً منه، و﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ مطلق في مشابهة بعضه بعضاً، فكان متناولاً لتشابه معانيه في الصحة والإحكام، والبناء على الحق والصدق ومنفعة الخلق، وتناسب ألفاظه وتناصفها في التخير والإصابة، وتجاوب نظمه وتأليفه في الإعجاز والتبكيت، ويجوز أن يكون ﴿مَّثَانِيَ﴾ بياناً لكونه متشابهاً؛ لأن القصص المكررة لا تكون إلاّ متشابهة. والمثاني: جمع مثنى بمعنى مردّد ومكرّر، ولما ثنى من قصصه وأنبائه، وأحكامه، وأوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، ومواعظه. وقيل: لأنه يثنى في التلاوة، فلا يمل كما جاء في وصفه لا يتفه ولا يتشان[1] ولا يخلق على كثرة الرّد (١٣٣٨). ويجوز أن يكون جمع مثنى مفعل، من التثنية بمعنى التكرير، والإعادة كما كان قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤] بمعنى كرّة بعد كرّة، وكذلك: لبيك وسعديك، وحنانيك. فإن قلت: كيف وصف الواحد بالجمع؟ قلت: إنما صحّ ذلك لأنّ الكتاب جملة ذات تفاصيل، وتفاصيل الشيء هي جملته لا غير، إلاّ تراك تقول: القرآن أسباع وأخماس، وسور وآيات ٢/ ١٤٤أ، وكذلك تقول: أقاصيص وأحكام ومواعظ مكررات، ونظيره قولك: الإنسان عظام وعروق وأعصاب، ألا أنك تركت الموصوف إلى الصفة، وأصله: كتاباً متشابهاً فصولاً مثاني، ويجوز أن يكون كقولك: برمة أعشار، وثوب أخلاق. ويجوز أن لا يكون مثاني صفة، ويكون منتصباً على التمييز من ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾، كما تقول: رأيت رجلاً حسناً شمائل، والمعنى: متشابهة مثانيه. فإن قلت: ما فائدة التثنية والتكرير؟ قلت: النفوس أنفر شيء من حديث الوعظ والنصيحة، فما لم يكرر عليها عوداً على بدء لم

١٣٣٨ ـ تقدم في آل عمران.

---

(١) قوله: «لا يتفه ولا يتشان» في الصحاح «التافه»: الحقير اليسير، وفيه تشانت القربة: أخلقت، وتشان الجلد: يبس وتشنج. (ع).

يرسخ فيها ولم يعمل عمله، ومن ثم كانت عادة رسول الله ﷺ أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرات وسبعاً؛ (١٣٣٩) ليركزه في قلوبهم، ويغرسه في صدورهم. اقشعر الجلد: إذا تقبّض تقبضاً شديداً، وتركيبه من حروف القشع وهو الأديم اليابس، مضموماً إليها حرف رابع وهو الراء؛ ليكون رباعيًا ودالاً على معنى زائد. يقال: اقشعر جلده من الخوف وقَفَّ شعره[1]، وهو مثل في شدّة الخوف، فيجوز أن يريد به الله سبحانه التمثيل؛ تصويراً لإفراط خشيتهم، وأن يريد التحقيق. والمعنى: أنهم إذا سمعوا بالقرآن وبآيات وعيده أصابتهم خشية تقشعر منها جلودهم، ثم إذا ذكروا الله ورحمته وجوده بالمغفرة لانت جلودهم وقلوبهم وزال عنها ما كان بها من الخشية والقشعريرة. فإن قلت: ما وجه تعدية «لان» بإلى؟ قلت: ضمن معنى فعل متعدّ بإلى، كأنه قيل: سكنت، أو اطمأنت إلى ذكر الله، لينة غير منقبضة، راجية غير خاشية. فإن قلت: لم اقتصر على ذكر الله من غير ذكر الرحمة؟ قلت: لأنّ أصل أمره الرحمة والرأفة، ورحمته هي سابقة غضبه، فلأصالة رحمته إذا ذكر لم يخطر بالبال قبل كل شيء من صفاته إلا كونه رءوفاً رحيماً. فإن قلت: لم ذكرت الجلود وحدها أوّلاً، ثم قرنت بها القلوب؟ ثانياً؟ قلت: إذا ذكرت الخشية التي محلها القلوب، فقد ذكرت القلوب، فكأنه قيل: تقشعر جلودهم من آيات الوعيد، وتخشى قلوبهم في أوّل وهلة، فإذا ذكروا الله ومبنى أمره على الرأفة والرحمة، استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم، وبالقشعريرة ليناً في جلودهم. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الكتاب، وهو ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ﴾ يوفق به من يشاء، يعني: عباده المتقين؛ حتى يخشوا تلك الخشية ويرجوا ذلك الرجاء، كما قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ ومن يخذله من الفساق[2] والفجرة ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، أو ذلك الكائن من الخشية والرجاء هدى الله، أي: أثر هداه وهو لطفه، فسماه هدى؛ لأنه حاصل بالهدى، ﴿يَهْدِى بِهِۦ﴾ بهذا الأثر ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، يعني: من صحب أولئك ورآهم خاشين راجين، فكان ذلك مرغباً لهم في الاقتداء بسيرتهم وسلوك طريقتهم. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ ومن لم تؤثر فيه ألطافه؛ لقسوة

١٣٣٩ ـ قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٠٣): غريب والحديث بمعناه عند البخاري (١/ ٢٥٤)، كتاب العلم، باب: من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه، رقم (٩٥) من طريق ثمامة عن أنس، وقال الحافظ: لم أجده، وفي البخاري عن أنس رضي الله عنه «كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً ـ الحديث» وزاد أحمد «وكان يستأذن ثلاثاً». انتهى.

---

(١) قوله: «وقف شعره» أي: قام من الفزع، كذا في الصحاح. (ع).

(٢) قوله: «ومن يخذله من الفساق» تأويل الضلال بذلك مبني على مذهب المعتزلة أن الله لا يخلق الشر. وعند أهل السنة: أنه يخلقه كالخير، فالإضلال: خلق الضلال في القلب. (ع).

قلبه، وإصراره على فجوره. ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ من مؤثر فيه بشيء قط.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يقال: اتقاه بدرقته استقبله بها فوقى بها نفسه إياه واتقاه بيده. وتقديره: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾[1] كمن أمن العذاب، فحذف الخبر كما حذف في نظائره، و﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾: شدّته، ومعناه: أن الإنسان إذا لقي مخوفاً من المخاوف استقبله بيده، وطلب أن يقي بها وجهه؛ لأنه أعزّ أعضائه عليه، والذي يلقى في النار يلقى مغلولة يداه إلى عنقه، فلا يتهيأ له أن يتقي النار إلاّ بوجهه الذي كان يتقي المخاوف بغيره، وقاية له ومحاماة عليه. وقيل: المراد بالوجه الجملة، وقيل: نزلت في أبي جهل. وقال لهم خزنة النار: ﴿ذُوقُوا۟﴾ وبال ﴿مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ...... مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من الجهة التي لا يحتسبون، ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها، بينا هم آمنون رافهون إذ فوجئوا من مأمنهم. والخزي: الذلّ والصغار، كالمسخ والخسف والقتل والجلاء، وما أشبه ذلك من نكال الله.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال مؤكدة، كقولك: جاءني زيد رجلاً صالحاً وإنساناً عاقلاً، ويجوز أن ينتصب على المدح، ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ مستقيماً بريئاً من التناقض والاختلاف. فإن قلت: فهلا قيل: مستقيماً: أو غير معوج؟ قلت: فيه فائدتان، إحداهما: نفي أن يكون فيه عوج قط، كما قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١]، والثانية: أن لفظ العوج مختص ٢/ ١٤٤ب بالمعاني دون الأعيان، وقيل: المراد بالعوج: الشكّ واللبس. وأنشد [من البسيط]:

وَقَدْ أَتَاكَ يَقِينٌ غَيْرُ ذِي عِوَجٍ ... مِنَ الإِلهِ وَقَوْلٌ غَيْرُ مَكْذُوبِ[2]

---

(١) قال محمود: «معناه كمن هو آمن، فحذف الخبر أسوة أمثاله... إلخ» قال أحمد: الملقى في النار والعياذ بالله، لم يقصد الاتقاء بوجهه، ولكنه لم يجد ما يتقي به النار غير وجهه، ولو وجد لفعل، فلما لقيها بوجهه كانت حاله حال المتقي بوجهه، عبر عن ذلك بالاتقاء من باب المجاز التمثيلي، والله أعلم.

(٢) الخطاب لرسول الله ﷺ، والمراد باليقين والقول: القرآن. أو اليقين: الأسرار، والقول: القرآن. أو اليقين: القرآن، والقول: ما عداه من الأوامر والنواهي، و«من الإله» متعلق بأتاك. والمعنى: أن ذاك =

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

واضرب لقومك مثلاً، وقل لهم: ما تقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع، كل واحد منهم يدعي أنه عبده، فهم يتجاذبونه ويتعاورونه في مهن شتى ومشادة، وإذا عنت له حاجة تدافعوه، فهو متحير في أمره سادر[1]، قد تشعبت الهموم قلبه وتوزعت أفكاره، لا يدري أيهم يرضي بخدمته؟ وعلى أيهم يعتمد في حاجاته؟ وفي آخر: قد سلم لمالك واحد وخلص له، فهو معتنق لما لزمه من خدمته، معتمد عليه فيما يصلحه، فهمه واحد وقلبه مجتمع، أيُّ هذين العبدين أحسن حالاً وأجمل شأناً؟ والمراد: تمثيل حال من يثبت آلهة شتى، وما يلزمه على قضية مذهبه من أن يدعي كل واحد منهم عبوديته، ويتشاكسوا في ذلك ويتغالبوا، كما قال تعالى: ﴿ولعلا بعضهم على بعض﴾ [المؤمنون: ٩١] ويبقى هو متحيراً ضائعاً لا يدري أيهم يعبد؟ وعلى ربوبية أيهم يعتمد؟ وممن يطلب رزقه؟ وممن يلتمس رفقه؟ فهمه شعاع، وقلبه أوزاع[2]، وحال من لم يثبت إلا إلهاً واحداً، فهو قائم بما كلفه، عارف بما أرضاه وما أسخطه، متفضل عليه في عاجله، مؤمل للثواب من آجله. و ﴿فِيهِ﴾ صلة شركاء، كما تقول: اشتركوا فيه. والتشاكس والتشاخس: الاختلاف، تقول: تشاكست أحواله، وتشاخست أسنانه، ﴿سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ خالصاً. وقرئ: «سلما» بفتح الفاء والعين، وفتح الفاء وكسرها مع سكون العين، وهي مصادر سلم. والمعنى: ذا سلامة لرجل، أي: ذا خلوص له من الشركة، من قولهم: سلمت له الضيعة. وقرئ بالرفع على الابتداء، أي: وهناك رجل سالم لرجل، وإنما جعله رجلاً؛ ليكون أفطن لما شقي به أو سعد، فإن المرأة والصبي قد يغفلان عن ذلك، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾؟ هل يستويان: صفة على التمييز، والمعنى: هل يستوي صفتاهما وحالاهما، وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس. وقرئ: «مثلين» كقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ [التوبة: ٦٩] مع قوله: ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ويجوز فيمن قرأ: «مثلين»، أن يكون الضمير في ﴿يَسْتَوِيَانِ﴾ للمثلين؛ لأن التقدير: مثل رجل ومثل رجل. والمعنى: هل يستويان فيما يرجع إلى الوصفية، كما تقول: كفى بهما رجلين ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الواحد الذي لا شريك له دون كل معبود سواه، أي: يجب أن يكون الحمد متوجهاً إليه

= من الشك واللبس، ومن الكذب؛ فالعوج: استعارة تصريحية.

(١) قوله: «في أمره سادر» في الصحاح «السادر»: المتحير. (ع).

(٢) قوله: «فهمه شعاع... إلخ» بالفتح، أي: متفرق. وقولهم: بها أوزاع من الناس، أي: جماعات، كذا في الصحاح. (ع).

وحده والعبادة، فقد ثبت أنه لا إله إلاّ هو، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركون به غيره.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

كانوا يتربصون برسول الله ﷺ موته، فأخبر أن الموت يعمهم، فلا معنى للتربص، وشماتة الباقي بالفاني. وعن قتادة: نعى إلى نبيه نفسه، ونعى إليكم أنفسكم[(١)]. وقرئ: «مائت ومائتون»،[(٢)] والفرق بين الميت والمائت: أنّ الميت صفة لازمة كالسيد. وأما المائت فصفة حادثة، تقول: زيد مائت غداً، كما تقول: سائد غداً، أي سيموت وسيسود. وإذا قلت: زيد ميت، فكما تقول: حي في نقيضه، فيما يرجع إلى اللزوم والثبوت. والمعنى في قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ إنك وإياهم، وإن كنتم أحياء فأنتم في عداد الموتى؛ لأنّ ما هو كائن فكأن قد كان، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ ثم إنك وإياهم، فغلب ضمير المخاطب على ضمير الغيب ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتج أنت عليهم بأنك بلغت فكذبوا، فاجتهدت في الدعوة فلجوا في العناد، ويعتذرون بما لا طائل تحته، تقول الأتباع: أطعنا سادتنا وكبراءنا، وتقول السادات: أغوتنا الشياطين وآباؤنا الأقدمون؛ وقد حمل على اختصام الجميع، وأنّ الكفار يخاصم بعضهم بعضاً؛ حتى يقال لهم: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ [ق. ٢٨] والمؤمنون الكافرين يبكتونهم بالحجج، وأهل القبلة يكون بينهم الخصام. قال عبد الله بن عمر: لقد عشنا برهة من دهرنا وديننا ونحن نرى أنّ هذه الآية أنزلت فينا وفي أهل الكتاب؟ قلنا: كيف نختصم ونبينا واحد وديننا واحد وكتابنا واحد؟ حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف، فعرفت أنها أنزلت فينا (١٣٤٠). وقال أبو سعيد الخدري:

١٣٤٠ ـ أخرجه الحاكم (٤/ ٥٧٢ ـ ٥٧٣)، كتاب: الأهوال، باب: لا يدخل أهل الجنة الجنة حتى. . .، من طريق القاسم بن عوف البكري عن ابن عمر. وقال الحافظ: أخرجه الحاكم من رواية القاسم ابن عوف عن ابن عمر رضي الله عنهما. انتهى.

---

(١) قوله: «ونعى إليكم أنفسكم» لعله: إليهم أنفسهم. (ع).

(٢) قال محمود: «قرئ: إنك ميت ومائت. . . إلخ» قال أحمد: فاستعمال ميت مجاز؛ إذ الخطاب مع الأحياء، واستعمال مائت حقيقة؛ إذ لا يعطي اسم الفاعل وجود الفعل حال الخطاب. ونظيره قوله تعالى: (الله يتوفى الأنفس حين موتها) يعني: توفي الموت (والتي لم تمت في منامها) أي يتوفاها حين المنام، تشبيهاً للنوم بالموت، كقوله: (وهو الذي يتوفاكم بالليل) فيمسك الأنفس التي قضى عليها الموت الحقيقي، أي: لا يردها في وقتها حية (ويرسل الأخرى) أي: النائمة إلى الأجل الذي سماه، أي قدره لموتها الحقيقي. هذا أوضح ما قيل في تفسير الآية، والله أعلم.

كنا نقول: ربنا واحد ونبينا واحد وديننا واحد، فما هذه الخصومة؟ فلما كان يوم صفّين وشدّ بعضنا على بعض بالسيوف، قلنا: نعم هو هذا (١٣٤١). وعن إبراهيم النخعي قالت الصحابة: ما خصومتنا ونحن إخوان؟ فلما قتل عثمان رضي الله عنه قالوا: هذه خصومتنا (١٣٤٢). وعن أبي العالية: نزلت في أهل القبلة. والوجه الذي يدلّ عليه كلام الله هو ما قدمت أولاً. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ ٢/ ١٤٥أ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٣] وما هو إلا بيان وتفسير للذين يكون بينهم الخصومة. ﴿كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ افترى عليه بإضافة الولد والشريك إليه. ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ بالأمر الذي هو الصدق بعينه، وهو ما جاء به محمد ﷺ، ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ فاجأه بالتكذيب؛ لما سمع به من غير وقفة؛ لإعمال روية واهتمام بتمييز بين حق وباطل، كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون. ﴿مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لهؤلاء الذين كذبوا على الله وكذبوا بالصدق، واللام في ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ إشارة إليهم.

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ هو رسول الله ﷺ: جاء بالصدق وآمن به، وأراد به إياه ومن تبعه، كما أراد بموسى إياه وقومه في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [المؤمنون: ٤٩] فلذلك قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ إلا أنّ هذا في الصفة وذاك في الاسم. ويجوز أن يريد: والفوج أو الفريق الذي جاء بالصدق وصدق به، وهم الرسول الذي جاء بالصدق، وصحابته الذي صدقوا به[(١)]. وفي قراءة ابن مسعود: «والذين

١٣٤١ ـ عزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٠٤) للثعلبي من طريق أبي هاشم عن الخدري.
وقال الحافظ ابن حجر: ذكره الثعلبي قال: وروى خلف بن خليفة عن أبي هاشم عن الخدري. انتهى.
١٣٤٢ ـ أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ١٧٢).
والطبري في تفسيره (١١/ ٤)، رقم (٣٠١٤٠)، كلاهما من طريق ابن عون عن إبراهيم النخعي، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٠٤) للثعلبي في تفسيره من نفس الطريق السابق.
وقال الحافظ بن حجر: أخرجه عبد الرزاق، والطبري، والثعلبي، من رواية عبد الله بن عون عن إبراهيم بهذا. انتهى.

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: وفيه توزيع للصلة، والفوج هو الموصول، فهو كقولك: جاء =

جاءوا بالصدق وصدقوا به» وقرئ: «وصدق به» بالتخفيف، أي: صدق به الناس ولم يكذبهم به، يعني: أداه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف. وقيل: صار صادقاً به، أي: بسببه؛ لأنّ القرآن معجزة، والمعجزة تصديق من الحكيم الذي لا يفعل القبيح لمن يجريها على يده، ولا يجوز أن يصدق إلاّ الصادق، فيصير لذلك صادقاً بالمعجزة، وقرئ: «وصدق به»، فإن قلت: ما معنى إضافة الأسوأ والأحسن إلى الذي عملوا؟ وما معنى التفضيل فيهما؟ قلت: أما الإضافة فما هي من إضافة أفعل إلى الجملة التي يفضل عليها، ولكن من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه من غير تفضيل، كقولك: الأشج أعدل بني مروان. وأما التفضيل فإيذان بأن السيء الذي يفرط منهم من الصغائر والزلاّت المكفرة، هو عندهم الأسوأ لاستعظامهم المعصية، والحسن الذي يعملونه هو عند الله الأحسن؛ لحسن إخلاصهم فيه؛ فلذلك ذكر سيئهم بالأسوأ وحسنهم بالأحسن. وقرئ: «أسوأ» الذي عملوا جمع سوء.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي، فأفيد معنى إثبات الكفاية وتقريرها. وقرئ: «بكاف عبده» وهو رسول الله ﷺ، و «بكاف عباده» وهم الأنبياء؛ وذلك: أنّ قريشاً قالت لرسول الله ﷺ: إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا، وإنا نخشى عليك معرتها[1] لعيبك إياها. ويروى: أنه بعث خالداً إلى العزّى ليكسرها، فقال له سادنها: أحذركها يا خالد، إنّ لها لشدّة لا يقوم لها شيء، فعمد خالد إليها فهشم أنفها. فقال الله عزّ وجلّ: أليس الله بكاف نبيه أن يعصمه من كل سوء ويدفع عنه كل بلاء في مواطن الخوف. وفي هذا تهكم بهم؛ لأنّهم خوّفوه ما لا يقدر على نفع ولا ضرّ. أو أليس الله بكاف أنبياءه، ولقد قالت أممهم نحو ذلك، فكفاهم الله، وذلك قول قوم هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤] ويجوز أن يريد: العبد والعباد على الإطلاق؛ لأنه كافيهم في الشدائد وكافل مصالحهم. وقرئ: «بكافي عباده» على الإضافة. و«يكافي عباده». ويكافي: يحتمل أن يكون غير مهموز مفاعلة من الكفاية، كقولك: يجازي في يجزى، وهو أبلغ من كفى؛ لبنائه على لفظ المبالغة والمباراة: أن يكون مهموزاً من المكافأة وهي المجازاة؛ لما تقدم من قوله: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم﴾، ﴿بِٱلَّذِينَ مِن

= الفريق الذي شرُفَ وشُرِّف، والأظهر عدم التوزيع، بل المعطوف على الصلة صلة لمن له الصلة الأولى. انتهى. الدر المصون.

(١) قوله: «معرتها» أي: إثمها. أفاده الصحاح. (ع).

دُونِهِۦ﴾ أراد: الأوثان التي اتخذوها آلهة من دونه. ﴿بِعَزِيزٍ﴾ بغالب منيع. ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ ينتقم من أعدائه، وفيه وعيد لقريش، ووعد للمؤمنين بأنه ينتقم لهم منهم وينصرهم عليهم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قرئ: «كاشفاتٌ ضرَّه» و«ممسكاتٌ رحمتَه» بالتنوين على الأصل، وبالإضافة للتخفيف. فإن قلت: لم فرض المسألة في نفسه دونهم؟ قلت: لأنهم خوّفوه معرّة الأوثان وتخبيلها، فأمر بأن يقرّرهم أوّلاً بأن خالق العالم هو الله وحده. ثم يقول لهم بعد التقرير: فإذا أرادني خالق العالم الذي أقررتم به بضرّ من مرض أو فقر أو غير ذلك من النوازل، أو برحمة من صحة أو غنى أو نحوهما، هل هؤلاء اللاتي خوّفتموني إياهن كاشفات عني ضرّه أو ممسكات رحمته؟ حتى إذا ألقمهم الحجر وقطعهم حتى لا يحيروا ٢/ ١٤٥ب ببنت شفة قال: ﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ كافياً لمعرّة أوثانكم ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وفيه تهكم. ويروى أنّ النبيّ ﷺ سألهم فسكتوا، فنزل ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ فإن قلت: لم قيل: كاشفات وممسكات، على التأنيث بعد قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾؟ قلت: أنثهن وكن إناثاً وهن اللات والعزّى ومناة، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢١] ليضعفها ويعجزها زيادة تضعيف وتعجيز عما طالبهم به من كشف الضرّ وإمساك الرحمة؛ لأنّ الأنوثة من باب اللين والرخاوة، كما أنّ الذكورة من باب الشدّة والصلابة، كأنه قال: الأناث اللاتي هن اللاّت والعزّى ومناة أضعف مما تدعون لهنّ وأعجز. وفيه تهكم أيضاً.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالكم التي أنتم عليها وجهتكم من العداوة التي تمكنتم منها، والمكانة بمعنى المكان، فاستعيرت عن العين للمعنى كما يستعار هنا، وحيث ـ للزمان، وهما للمكان. فإن قلت: حق الكلام: فإني عامل على مكانتي، فلم حذف؟ قلت: للاختصار، ولما فيه من زيادة الوعيد، والإيذان بأنّ حاله لا تقف، وتزداد كل يوم قوّة وشدّة؛ لأنّ الله ناصره ومعينه ومظهره على الدين كله. ألا ترى إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ﴾ كيف توعدهم بكونه منصوراً عليهم غالباً عليهم في الدنيا والآخرة؛ لأنهم إذا

أتاهم الخزي والعذاب فذاك عزّه وغلبته، من حيث إن الغلبة تتم له بعز عزيز من أوليائه، وبذل ذليل من أعدائه. ﴿يُخْزِيهِ﴾ مثل مقيم في وقوعه صفة للعذاب، أي: عذاب مخزٍ له، وهو يوم بدر، وعذاب دائم وهو عذاب النار. وقرئ: «مكاناتكم».

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

﴿لِلنَّاسِ﴾ لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه؛ ليبشروا وينذروا، فتقوى دواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعصية. ولا حاجة إلى ذلك فأنا الغني، فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه، ومن اختار الضلالة فقد ضرّها. وما وكلت عليهم لتجبرهم على الهدى؛ فإنّ التكليف مبنيّ على الاختيار دون الإجبار.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿ٱلْأَنفُسَ﴾ الجمل كما هي، وتوفيها: إماتتها، وهو أن تُسلَب ما هي به حية حساسة درّاكة من: صحة أجزائها وسلامتها؛ لأنها عند سلب الصحة كأن ذاتها قد سلبت ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ يريد ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، أي: يتوفاها حين تنام، تشبيهاً للنائمين بالموتى. ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦] حيث لا يميزون ولا يتصرفون، كما أنّ الموتى كذلك، ﴿فَيُمْسِكُ﴾ الأنفس ﴿ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ الحقيقي، أي: لا يردّها في وقتها حية، ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ النائمة إلى أجل مسمى إلى وقت ضربه لموتها. وقيل: يتوفى الأنفس يستوفيها ويقضيها، وهي الأنفس التي تكون معها الحياة والحركة، ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، وهي أنفس التمييز. قالوا: فالتي تتوفى في النوم هي نفس التمييز لا نفس الحياة؛ لأنّ نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس، والنائم يتنفس. ورووا عن ابن عباس رضي الله عنهما: في ابن آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس التي بها العقل والتمييز، والروح التي بها النفس والتحرك، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه. (١٣٤٣) والصحيح ما ذكرت أوّلاً؛ لأنّ الله عزّ وعلا علق التوفي والموت والمنام جميعاً بالأنفس، وما عنوا بنفس الحياة والحركة ونفس العقل والتمييز غير متصف بالموت والنوم، وإنما الجملة هي التي تموت وهي التي تنام. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إنّ في توفي الأنفس مائتة ونائمة وإمساكها وإرسالها

١٣٤٣ ـ قال الزيلعي في تخريج الكشاف (٣/ ٢٠٥): غريب جداً. قال ابن حجر: لم أجده.

إلى أجل لآيات على قدرة الله وعلمه، لقوم يجيلون فيه أفكارهم ويعتبرون. وقرئ: «قُضِيَ عليها الموتُ» على البناء للمفعول.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ بل اتخذ قريش، والهمزة للإنكار ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من دون إذنه ﴿شُفَعَآءَۚ﴾ حين قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨] ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ أي: هو مالكها، فلا يستطيع أحد شفاعة إلاّ بشرطين: أن يكون المشفوع له مرتضى، وأن يكون الشفيع مأذوناً له. وههنا الشرطان مفقودان جميعاً. ﴿أَوَلَوْ كَانُواْ﴾ معناه: أيشفعون ولو كانوا ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: ولو كانوا على هذه الصفة لا يملكون شيئاً قطّ؛ حتى يملكوا الشفاعة ولا عقل لهم، ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ تقرير لقوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ لأنه إذا كان له الملك كله والشفاعة من الملك، كان مالكاً لها. ١٤٦/٢أ فإن قلت: بم يتصل قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؟ قلت: بما يليه، معناه: له ملك السمٰوات والأرض اليوم ثم إليه ترجعون يوم القيامة، فلا يكون الملك في ذلك اليوم إلاّ له، فله ملك الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

مدار المعنى على قوله: «وحده» أي: إذا أفرد الله بالذكر ولم يذكر معه آلهتهم «اشمأزوا» أي: نفروا وانقبضوا، ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ وهم آلهتهم ذكر الله معهم أو لم يذكر استبشروا؛ لافتتانهم بها ونسيانهم حق الله إلى هواهم فيها. وقيل: إذا قيل لا إله إلا الله وحده لا شريك له نفروا؛ لأنّ فيه نفياً لآلهتهم. وقيل: أراد استبشارهم بما سبق إليه لسان رسول الله ﷺ من ذكر آلهتهم حين قرأ (والنجم) عند باب الكعبة، فسجدوا معه لفرحهم، ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز؛ إذ كل واحد منهما غاية في بابه؛ لأنّ الاستبشار أن يمتلىء قلبه سروراً حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلّل. والاشمئزاز: أن يمتلىء غمّا وغيظاً حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه. فإن قلت: ما العامل في ﴿وَإِذَا ذُكِرَ﴾؟ قلت: العامل في إذا المفاجأة، تقديره وقت ذكر الذين من دونه، فاجأوا وقت الاستبشار.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾

بَعِل[1] رسول الله ﷺ بهم، وبشدة شكيمتهم في الكفر والعناد، فقيل له: ادع الله بأسمائه العظمى، وقل: أنت وحدك تقدر على الحكم بيني وبينهم، ولا حيلة لغيرك فيهم. وفيه وصف لحالهم وإعذار لرسول الله ﷺ وتسلية له ووعيد لهم. وعن الربيع بن خثيم[2] وكان قليل الكلام. أنه أخبر بقتل الحسين ـ رضي الله عنه، وسخط على قاتله ـ وقالوا: الآن يتكلم، فما زاد على أن قال: آه أو قد فعلوا؟ وقرأ هذه الآية. وروي أنه قال على أثره: قتل من كان رسول الله ﷺ يجلسه في حجره ويضع فاه على فيه.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ وعيد لهم لا كنه لفظاعته وشدّته، وهو نظير قوله تعالى في الوعد: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم﴾ [السجدة: ١٧] والمعنى: وظهر لهم من سخط الله وعذابه ما لم يكن قط في حسابهم ولم يحدثوا به نفوسهم. وقيل: عملوا أعمالاً حسبوها حسنات، فإذا هي سيئات. وعن سفيان الثوري أنه قرأها فقال: ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء. وجزع محمد بن المنكدر عند موته فقيل له، فقال: أخشى آية من كتاب الله، وتلاها، فأنا أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أحتسبه. ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أي سيئات أعمالهم التي كسبوها، أو سيئات كسبهم، حين تعرض صحائفهم، وكانت خافية عليهم، كقوله تعالى: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] وأراد بالسيئات: أنواع العذاب التي يجازون بها على ما كسبوا، فسماها سيئات، كما قال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ ونزل بهم وأحاط جزاء هزئهم.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

التخويل: مختص بالتفضل. ويقال: خولني، إذا أعطاك على غير جزاء. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي على علم مني أني سأعطاه؛ لما فيّ من فضل واستحقاق. أو على علم من الله بي وباستحقاقي:[3] أو على علم مني بوجوه الكسب، كما قال قارون: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾

(١) قوله: «بعل رسول الله» في الصحاح: «بعل الرجل» بالكسر، أي: دهش. (ع).
(٢) قوله: «وعن الربيع بن خثيم» في النسفي: خيثم. (ع).
(٣) قال محمود: «معناه على علم من الله بي وباستحقاقي... إلخ» قال أحمد: كذلك يقول: على =

[القصص: ٧٨]. فإن قلت: لم ذكر الضمير في ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ وهو للنعمة؟ قلت: ذهاباً به إلى المعنى؛ لأنّ قوله: ﴿نِعۡمَةً مِّنَّا﴾ شيئاً ما النعم وقسماً منها. ويحتمل أن تكون (ما) في إنما موصولة لا كافة، فيرجع إليها الضمير. على معنى: إن الذي أوتيته على علم ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾ إنكار لقوله كأنه قال: ما خولناك من النعمة لما تقول، بل هي فتنة، أي: ابتلاءَ وامتحان لك، أتشكر أم تكفر؟ فإن قلت: كيف ذكر الضمير ثم أنثه؟ قلت: حملاً على المعنى أوّلاً، وعلى اللفظ آخراً؛ ولأنّ الخبر لما كان مؤنثاً أعني ﴿فِتۡنَةٞ﴾: ساغ تأنيث المبتدإ لأجله؛ لأنه في معناه، كقولهم: ما جاءت حاجتك. وقرئ: «بل هو فتنة» على وفق ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾. فإن قلت: ما السبب في عطف هذه الآية بالفاء وعطف مثلها في أوّل السورة بالواو؟ قلت: السبب في ذلك أنّ هذه وقعت مسببة عن قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ﴾[1] [الزمر: ٤٥] على معنى أنهم يشمئزون عن ذكر الله ويستبشرون بذكر الآلهة، فإذا مسّ أحدهم ضرّ دعا من اشمأزّ من ذكره، دون من استبشر بذكره، وما بينهما من الآي اعتراض. فإن قلت: حق الاعتراض أن يؤكد المعترض بينه وبينه[2]. قلت: ما في الاعتراض من دعاء رسول الله ﷺ ربه بأمر منه وقوله: «أنت تحكم ٢/١٤٦ب بينهم» ثم ما عقبه من الوعيد العظيم: تأكيد لإنكار اشمئزازهم واستبشارهم ورجوعهم إلى الله في الشدائد دون آلهتهم، كأنه قيل: يا رب لا يحكم بيني وبين هؤلاء الذين يجترئون عليك مثل هذه الجراءة، ويرتكبون مثل هذا المنكر إلا أنت. وقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الزمر: ٤٧] متناول لهم ولكل ظالم إن جعل مطلقاً، أو إياهم خاصة إن عنيتهم به، كأنه قيل: ولو أنّ لهؤلاء الظالمين ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به. حين أحكم عليهم بسوء العذاب، وهذه الأسرار والنكت لا يبرزها إلا علم النظم، وإلا بقيت محتجبة في أكمامها. وأما الآية الأولى فلم تقع مسببة وما هي إلا جملة ناسبت جملة قبلها فعطفت عليها بالواو، كقولك: قام زيد وقعد عمرو. فإن قلت: من أي وجه وقعت مسببة؟

= قدري تمنى على الله أن يثيبه في الآخرة: أن الفرق بين حمد الدنيا وحمد الآخرة أن حمد الدنيا واجب على العبد؛ لأنه على نعمة متفضل بها، وحمد الآخرة ليس بواجب عليه؛ لأنه على نعمة واجبة على الله عز وجل، ولقد صدق الله إذ يقول، وهي فتنة إنما سلم منها أهل السنة؛ إذ يعتقدون أن الثواب بفضل الله وبرحمته لا باستحقاق، ويتبعون في ذلك قول سيد البشر ﷺ: لا يدخل أحد الجنة بعمله. قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته، فما أحمق من منى نفسه وركب رأسه، وطمع أنه يستحق على الله الجنة.

(١) قال محمود: «فإن قلت: لم عطفت هذه الآية على التي قبلها بالفاء؟ والآية التي قبلها في أول السورة بالواو؟ وأجاب بأن هذه الآية مسببة عن قوله: (وإذا ذكر الله...) إلخ» قال أحمد: كلام جليل فافهمه، فضلاً عن مشبه قليل.

(٢) قوله: «المعترض بينه وبينه» لعل قوله: «وبينه» مزيد من بعض الناسخين. (ع).

والاشمئزاز عن ذكر الله ليس بمقتض لالتجائهم إليه، بل هو مقتض لصدوفهم[(١)] عنه.
قلت: في هذا التسبيب لطف، وبيانه أنك تقول: زيد مؤمن بالله، فإذا مسّه ضرّ التجأ إليه، فهذا تسبيب ظاهر لا لبس فيه، ثم تقول: زيد كافر بالله، فإذا مسّه ضرّ التجأ إليه، فتجيء بالفاء مجيئك به ثمة، كأنّ الكافر حين التجأ إلى الله التجاء المؤمن إليه، مقيم كفره مقام الإيمان، ومجريه مجراه في جعله سبباً في الالتجاء، فأنت تحكي ما عكس فيه الكافر. ألا ترى أنك تقصد بهذا الكلام الإنكار والتعجب من فعله.؟

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

الضمير في ﴿قَالَهَا﴾ راجع إلى قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ لأنها كلمة أو جملة من القول. وقرئ: «قد قاله» على معنى القول والكلام، وذلك والذين من قبلهم: هم قارون وقومه، حيث قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، وقومه راضون بها، فكأنهم قالوها. ويجوز أن يكون في الأمم الخالية آخرون قائلون مثلها: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من متاع الدنيا ويجمعون منه. ﴿مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ من مشركي قومك ﴿سَيُصِيبُهُمْ﴾ مثل ما أصاب أولئك، فقتل صناديدهم ببدر، وحبس عنهم الرزق، فقحطوا سبع سنين، ثم بسط لهم فمطروا سبع سنين، فقيل لهم: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟﴾ أنه لا قابض ولا باسط إلاّ الله عزّ وجلّ.

﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾

﴿أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ جنوا عليها بالإسراف في المعاصي والغلوّ فيها ﴿لَا تَقْنَطُوا۟﴾ قرئ: بفتح النون وكسرها وضمها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ يعني بشرط التوبة[(٢)]، وقد تكرّر ذكر هذا الشرط في القرآن، فكان ذكره فيما ذكر فيه ذكراً له فيما لم يذكر فيه؛ لأنّ القرآن في حكم كلام واحد، ولا يجوز فيه التناقض. وفي قراءة ابن عباس وابن مسعود:

(١) قوله: «الصدوفهم عنه» أي: إعراضهم. أفاده الصحاح. (ع).
(٢) قوله: «يعني بشرط التوبة» عند التوبة، فالعموم شامل للشرك، وعند عدمها فلا غفران للكبائر عند المعتزلة، ويجوز بالشفاعة وبمجرد الفضل عند أهل السنة(إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) كما تقرر في علم التوحيد، فارجع إليه. (ع).

«يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء». والمراد بمن يشاء: من تاب؛ لأنّ مشيئة الله تابعة لحكمته وعدله، لا لملكه وجبروته. وقيل: في قراءة النبيّ ﷺ وفاطمة رضي الله عنها: «يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي» ونظير نفي المبالاة نفي الخوف في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١٥] وقيل: قال أهل مكة: يزعم محمد أنّ من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له، فكيف ولم نهاجر، وقد عبدنا الأوثان، وقتلنا النفس التي حرّم الله؟ فنزلت. وروي أنه أسلم عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر معهما، ثم فتنوا وعذبوا، فافتتنوا، فكنا نقول: لا يقبل الله لهم صرفاً ولا عدلاً أبداً، فنزلت. فكتب بها عمر رضي الله عنه إليهم، فأسلموا وهاجروا، وقيل: نزلت في وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه. وعن رسول الله ﷺ: «ما أحب أنّ لي الدنيا وما فيها بهذه الآية» فقال رجل: يا رسول الله، ومن أشرك؟ فسكت ساعة ثم قال: «ألا ومن أشرك» (١٣٤٤) ثلاث مرّات.

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ وتوبوا إليه. ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ وأخلصوا له العمل، وإنما ذكر الإنابة على أثر المغفرة لئلا يطمع طامع في حصولها بغير توبة، وللدلالة على أنها شرط فيها لازم لا تحصل بدونه ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ مثل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨]. ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي يفجؤكم وأنتم غافلون، كأنكم لا تخشون شيئاً لفرط غفلتكم وسهوكم. ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ كراهة أن تقول. فإن قلت: لم نكرت؟ قلت: لأنّ المراد بها بعض الأنفس، وهي نفس الكافر. ويجوز أن يراد: نفس متميزة من الأنفس؛ إما بلجاج في الكفر شديد، أو بعذاب عظيم. ويجوز أن يراد التكثير،

١٣٤٤ ـ أخرجه الطبري في تفسيره (١١/١٦)، حديث (٣٠١٨٧).
والبيهقي في الشعب (٥/٤٢٣)، باب: في معالجة كل ذنب بالتوبة حديث (٧١٣٧)، كلاهما من طريق أبو عبد الرحمن الحُبُلي عن ثوبان، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/٢٠٥) لابن مردويه من تفسيره، وللثعلبي في تفسيره، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه الطبري والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب في السابع والأربعين من حديث ثوبان، وفيه ابن لهيعة عن أبي قبيل وهما ضعيفان. انتهى.

كما قال الأعشى ٢/١٤٧أ [من الطويل]:

وَرَبَّ بَقِيعٍ لَوْ هَتَفْتُ بِحَوِّهِ   أَتَانِي كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرَّأْسَ مُغْضَبَا(١)

وهو يريد: أفواجاً من الكرام ينصرونه، لا كريماً واحداً. ونظيره: ربَّ بلد قطعت، ورب بطل قارعت. وقد اختلس الطعنة ولا يقصد إلاّ التكسير. وقرئ: «يا حسرتي» على الأصل. ويا حسرتاي، على الجمع بين العوض والمعوّض منه. والجنب: الجانب، يقال: أنا في جنب فلان وجانبه وناحيته، وفلان لين الجنب والجانب، ثم قالوا: فرّط في جنبه وفي جانبه، يريدون في حقه. قال سابق البربري [من الطويل]:

أَمَا تَتَّقِينَ اللَّهَ فِي جَنْبِ وَامِقٍ   لَهُ كَبِدٌ حَرَّى عَلَيْكِ تَقَطَّعُ(٢)

وهذا من باب الكناية؛ لأنك إذا أثبت الأمر في مكان الرجل وحيزه، فقد أثبته فيه. ألا ترى إلى قوله [من الكامل]:

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالْمُرُوءَةَ وَالنَّدَى   فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرَجِ(٣)

---

(١) دعا قومه حولي فجاءوا لنصره   وناديت قوماً بالمسناة غيبا
ورب بقيع لو هتفت بحوه   أتاني كريم ينفض الرأس مغضبا
للأعشى، وقيل: لأبي عمرو بن العلاء، يصف قومه بالجبن حتى كأنهم أموات مقبورون، صارت الأحجار مسناة فوقهم. وسنيت الشيء سهلته، أي: منعمة مملسة، أو بالية مفتتة. ويجوز أن أصله مسننة، فقلبت النون الثانية ألفاً. وسننت الحجر حددته وملسته. وفي وصف القبور بذلك مبالغة في وصف قومه بالجبن، بل هم دون تلك الأموات، فرب بقيع: أي موضع فيه أروم الشجر من ضروب شتى، والمراد مقبرة، لا بقيع الغرقد بالغين وهو مقبرة المدينة بعينها، لو هتفت بحوه، أي: ناديت شجاعهم لجاءني كريم ينفض رأسه من تراب القبر. أو من الغضب لما نالني من المكروه، وليس المراد كريماً واحداً، بل كرماء كثيرة بمعونة المقام. والحو ـ بالمهملة ـ: الشجاع، وبالمعجمة: العسل، وبالجيم: ما غلظ وارتفع من الأرض.
ينظر: ديوانه ٨، والبحر المحيط ٧/ ٤٣٥، ومقاييس اللغة ١/ ٢٨٢، الدر المصون ٦/ ١٩.

(٢) أما تتقين الله في جنب وامق   له كبد حرى عليك تقطع
غريب مشوق مولع بادكاركم   وكل غريب الدار بالشوق مولع
لجميل بن معمر، يستعطف صاحبته بثينة ويتوجع إليها مما نابه فيها، أي: أما تخافين الله في جنب وامق، أي: في حقه الواجب عليك، فالجنب: كناية عن ذلك. والوامق. الشديد المحبة، يعني نفسه. وحرى: أي ذات حر واحتراق. وتقطع: أصله تتقطع، والادكار: أصله الاذتكار، قلبت تاؤه دالاً مهملة، وأدغمت الذال المعجمة فيها، وخاطبها خطاب جمع المذكر تعظيماً. وفي البيت رد العجز على الصدر، وهو من بديع الكلام.
ينظر تاج العروس: (جنب) (جيم) البحر، ٧/ ٤٣٥، ديوان جميل (٢٧٣)، الدر المصون (٦/ ٢٠).

(٣) لزيادة الأعجم، يمدح عبد الله بن الحشرج أمير نيسابور، وهو من باب الكناية التي قصد بها النسبة. يعني أنه مختص بهذه الصفات لا توجد في غيره، ولا خيمة هناك ولا ضرب أصلاً.

ومنه قول الناس: لمكانك فعلت كذا، يريدون: لأجلك. وفي الحديث: «من الشرك الخفيّ أن يصلي الرجل لمكان الرجل» (١٣٤٥) وكذلك: فعلت هذا من جهتك. فمن حيث لم يبق فرق فيما يرجع إلى أداء الغرض بين ذكر المكان وتركه، قيل: ﴿فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ على معنى: فرطتُ في ذات الله. فإن قلت: فمرجع كلامك إلى أن ذكر الجنب كلا ذكر سوى ما يعطى من حسن الكناية وبلاغتها، فكأنه قيل: فرطت في الله. فما معنى فرطت في الله؟ قلت: لا بدّ من تقدير مضاف محذوف، سواء ذكر الجنب أو لم يذكر. والمعنى: فرطت في طاعة الله وعبادة الله، وما أشبه ذلك. وفي حرف عبد الله وحفصة: في ذكر الله. «وما» في «ما فرطت» مصدرية مثلها في ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ٢٥]، [التوبة: ١١٨]، ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ قال قتادة: لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها، ومحل ﴿وَإِن كُنتُ﴾ النصب على الحال، كأنه قال: فرطت وأنا ساخر، أي: فرطت في حال سخريتي. وروي: أنه كان في بني إسرائيل عالم ترك علمه وفسق. وأتاه إبليس، قال له: تمتع من الدنيا ثم تب، فأطاعه، وكان له مال فأنفقه في الفجور، فأتاه ملك الموت في ألذّ ما كان فقال: يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله، ذهب عمري في طاعة الشيطان، وأسخطت ربي فندم حين لم ينفعه الندم، فأنزل الله خبره في القرآن ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ لا يخلو: إما أن يريد الهداية[1] بالإلجاء أو بالإلطاف أو بالوحي، فالإلجاء خارج عن الحكمة، ولم يكن من أهل الإلطاف فيلطف به. وأما الوحي فقد كان، ولكنه عرض ولن يتبعه حتى يهتدي، وإنما يقول هذا تحيراً في أمره وتعللاً بما لا يجدي عليه، كما حكى عنهم التعلل بإغواء الرؤوساء والشياطين ونحو ذلك، ونحوه ﴿لَوْ هَدَىٰنَا

١٣٤٥ ـ أخرجه الحاكم (٤/ ٣٢٩)، كتاب الرقاق، باب: من تشعبت به الهموم لم يبال في أي أودية الدنيا هلك.

والبيهقي في الشعب (٥/ ٣٣٤)، باب: في إخلاص العمل لله وترك الرياء رقم (٦٨٣٢) ـ وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٠٦) لإسحاق بن راهويه والبزار في مسانيدهم.

وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه أحمد، وإسحاق، والبزار، والحاكم، والبيهقي، من رواية ربيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه عن جده قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً ونحن نتذاكر الدجال، فقال: غير الدجال أخوف عليكم: الشرك الخفي: أن يعمل الرجل لمكان الرجل» لفظ الحاكم. انتهى.

---

(١) قوله: «لا يخلو إما أن يريد به الهداية» تمحل لتطبيق الآية على مذهب المعتزلة، ولكن خلق الهداية لا يصلح إلى حد الإلجاء؛ لأنه لا يسلب الاختيار عند أهل السنة، كخلق التقوى والطاعة وغيرها من الأفعال الاختيارية؛ لما أثبتوه للعبد من الكسب فيها وإن كان فاعلها في الحقيقة هو الله تعالى، كما تقرر في علم التوحيد. (ع).

ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١] وقوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ ردّ من الله عليه، معناه: بلى قد هديت بالوحي فكذبت به واستكبرت عن قبوله، وآثرت الكفر على الإيمان، والضلالة على الهدى. وقرئ: بكسر التاء[1] على مخاطبة النفس. فإن قلت: فهلا قرن الجواب بما هو جواب له، وهو قوله: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ ولم يفصل بينهما بآية؟ قلت: لأنه لا يخلو: إما أن يقدّم على أخرى القرائن الثلاث فيفرق بينهن. وإما أن تؤخر القرينة الوسطى، فلم يحسن الأوّل لما فيه من تبتير النظم بالجمع بين القرائن. وأما الثاني: فلما فيه من نقص الترتيب وهو التحسر على التفريط في الطاعة، ثم التعلل بفقد الهداية، ثم تمني الرجعة فكان الصواب ما جاء عليه، وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها، ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب. فإن قلت: كيف صحّ أن تقع بلى جواباً لغير منفي؟ قلت: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ فيه معنى: ما هُديت.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي وصفوه بما لا يجوز عليه تعالى، وهو متعال[2] عنه، فأضافوا إليه

---

(١) قوله: «وقرئ بكسر التاء» لعل من كسرها كسر الكاف أيضاً. (ع).

(٢) قال محمود: «يعني الذين وصفوه تعالى بما لا يجوز عليه وهو متعال عنه... إلخ» قال أحمد: قد عدا طور التفسير لمرض في قلبه لا دواء له إلاّ التوفيق الذي حرمه، ولا يعافيه منه إلاّ الذي قدر عليه هذا الضلال وحتمه، وسنقيم عليه حد الرد؛ لأنه قد أبدى صفحته، ولولا شرط الكتاب لأضربنا عنه صفحاً ولو ينأي عن الالتفات إليه كشحا، وبالله التوفيق فنقول: أما تعريضه بأن أهل السنة يعتقدون أن القبائح من فعل الله تعالى، فيرجمه باعتقادهم المشار إليه قوله تعالى بعد آيات من هذه السورة (الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) أما الزمخشري وإخوانه القدرية، فيغيرون وجه هذه الآية ويقولون: ليس خالق كل شيء؛ لأن القبائح أشياء وليست مخلوقة له، فاعتقدوا أنهم نزهوا، وإنما أشركوا. وأما تعريضه لهم في أنهم يجوزون أن يخلق خلقاً لا لغرض؛ فذلك لأن أفعاله تعالى لا تعلل؛ لأنه الفعال لما يشاء. وعند القدرية ليس فعالاً لما يشاء؛ لأن الفعل إما منوط على حكمة ومصلحة، فيجب عليه أن يفعله عندهم؛ وإما عار عنها فيجب عليه أن يفعله، فأين أثر المشيئة إذاً؟ وأما اعتقاده أن في تكليف ما لا يطاق تظليماً لله تعالى، فاعتقاد باطل؛ لأن ذلك إنما ثبت لازماً لاعتقادهم أن الله تعالى خالق أفعال عبيده، فالتكليف بها تكليف بما ليس مخلوقاً لهم، والقاعدة الأولى حق، ولازم الحق حق، ولا معنى للظلم إلاّ التصرف في ملك الغير بغير إذنه، والعباد ملك الله تعالى، فكيف يتصور حقيقة الظلم منه، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيراً.
وأما تعريضه بأنهم يجوزون أن يؤلم لا لعوض، فيقال له: ما قولك أيها الظنين في إيلام البهائم والأطفال، ولا أعواض لها، وليس مرتباً على استحقاق سابق خلافاً للقدرية؛ إذ يقولون: لا بد في الألم من استحقاق سابق أو عوض. وأما اعتقاده أن تجويز رؤية الله تعالى يستلزم اعتقاد الجسمية، فإنه اغترار في اعتقاده بأدلة العقل المجوزة لذلك، مع البراءة من اعتقاد الجسمية، ولم يشعر أنه =

الولد والشريك، وقالوا: هؤلاء شفعاؤنا، وقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]، وقالوا: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] ولا يبعد عنهم قوم يسفهونه بفعل القبائح[1]، وتجويز أن يخلق خلقاً لا لغرض، ويؤلم لا لعوض، ويظلمونه بتكليف ما لا يطاق، ويجسمونه بكونه مرئياً معايناً مدركاً بالحاسة، ويثبتون له يداً وقدماً وجنباً متسترين بالبلكفة، ويجعلون له أنداداً بإثباتهم معه قدماء. ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ جملة في موضع الحال، إن كان «ترى» من رؤية البصر، ومفعول ثانٍ إن كان من رؤية القلب ٢/١٤٧ب.

﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾

قرئ: «يُنْجي» و«ينجّي» ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بفلاحهم، يقال: فاز بكذا إذا أفلح به وظفر بمراده منه. وتفسير المفازة قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ كأنه قيل: ما مفازتهم؟ فقيل: لا يمسهم السوء، أي ينجيهم بنفي السوء والحزن عنهم. أو بسبب منجاتهم، من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [آل عمران: ١٨٨] أي بمنجاة

= يقابل بهداية قول نبي الهدى عليه الصلاة والسلام: «إنكم سترون ربكم كالقمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته» فهذا النص الذي ينبو عن التأويل ولا يردع المتمسك به شيء من التهويل. وأما قوله: إنهم يتسترون بالبلكفة، فيعني به قولهم: «بلا كيف» أجل، إنها لستر لا تهتكه يد الباطل البتراء، ولا تبعد عن الهدى عين الضلال العوراء. وأما تعريضه بأنهم يجعلون لله أنداداً بإثباتهم معه قدماء، فنفي لإثباتهم صفات الكمال، كلا والله، إنما جعل لله أنداداً القدرية؛ إذ جعلوا أنفسهم يخلقون ما يريدون ويشتهون على خلاف مراد ربهم. حتى قالوا: إن ما شاءوه كان وما شاء الله لا يكون. وأما أهل السنة فلم يزيدوا على أن اعتقدوا أن لله تعالى علماً وقدرة وإرادة وسمعاً وبصراً وكلاماً وحياة، حسبما دل عليه العقل وورد به الشرع، وأي مخلص للقدري إذا سمع قوله تعالى: (وسع ربنا كل شيء علماً) إلا اعتقاد أن لله تعالى علماً. أو جحد آيات الله وإطفاء نوره، (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون). وأما قوله: إنهم يثبتون لله تعالى يداً وقدماً ووجهاً، فذلك فرية ما فيها مرية، ولم يقل بذلك أحد من أهل السنة. وإنما أثبت القاضي أبو بكر صفات سمعية وردت في القرآن: اليدان والعينان والوجه، ولم يتجاوز في إثباتها ما وردت عليه في كتاب الله العزيز، على أن غيره من أهل السنة حمل اليدين على القدرة والنعمة، والوجه على الذات؛ وقد مر ذلك في مواضع من الكتاب، فقد اتصف في هذه المباحثة بحال من بحث بظلفه على حتفه، وتعريضه معتقده الفاسد لهتك ستره وكشفه، وإنما حملني على إغلاظ مخاطبته الغضب لله تعالى ولرسوله ﷺ وأهل سنته، فإنه قد أساء عليهم الأدب، ونسبهم بكذبه إلى الكذب، والله الموفق.

(١) قوله: «قوم يسفهونه بفعل القبائح» يريد بهم أهل السنة، حيث ذهبوا إلى أنه تعالى هو الخالق لأفعال العباد ولو معاصي، وأن فعله لا لغرض بل لحكمة، وإيلام الأطفال لا يستوجب عليه عوضاً، وتظليمه نسبته إلى الظلم بتجويز تكليف المحال كما في علم الأصول، وجوزوا عليه الرؤية وهي غير مختصة بالأجسام عندهم، وجوز السلف أن يكون له يد ونحوها، لكن لا كالأيدي. وأراد بالقدماء صفات المعاني: كالقدرة والإرادة، حيث قال أهل السنة: إنها موجودة بوجودات زائدة على وجود الذات، وتحقيق ذلك في التوحيد والأصول، فانظره. والبلكفة: قولهم: «بلا كيف». (ع).

منه؛ لأنّ النجاة من أعظم الفلاح، وسبب منجاتهم العمل الصالح؛ ولهذا فسر ابن عباس رضي الله عنهما المفازة بالأعمال الحسنة، ويجوز: بسبب فلاحهم؛ لأنّ العمل الصالح سبب الفلاح وهو دخول الجنة. ويجوز أن يسمى العمل الصالح في نفسه: مفازة؛ لأنه سببها. وقرئ: «بمفازاتهم» على أن لكل متق مفازة. فإن قلت: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ﴾ ما محله من الإعراب على التفسيرين؟ قلت: أما على التفسير الأوّل فلا محل له؛ لأنه كلام مستأنف. وأما على الثاني فمحله النصب على الحال.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ أي هو مالك أمرها وحافظها، وهو من باب الكناية؛ لأنّ حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي يملك مقاليدها، ومنه قولهم: فلان ألقيت إليه مقاليد الملك وهي مفاتيح، ولا واحد لها من لفظها. وقيل: مقليد. ويقال: إقليد وأقاليد، والكلمة أصلها فارسية. فإن قلت: ما للكتاب العربي المبين وللفارسية؟ قلت: التعريب أحالها عربية، كما أخرج الاستعمال المهمل من كونه مهملاً. فإن قلت: بم اتصل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؟ قلت: بقوله: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ أي ينجي الله المتقين بمفازتهم، والذين كفروا هم الخاسرون. واعترض بينهما بأنه خالق الأشياء كلها. وهو مهيمن عليها فلا يخفى عليه شيء من أعمال المكلفين فيها وما يستحقون عليها من الجزاء، وقد جعل متصلاً بما يليه على أن كل شيء في السموات والأرض فالله خالقه وفاتح بابه، والذين كفروا وجحدوا أن يكون الأمر كذلك أولئك هم الخاسرون، وقيل: سأل عثمان رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾، فقال: «يا عثمان، ما سألني عنها أحد قبلك، تفسيرها: لا إله إلاّ الله والله أكبر، وسبحان الله وبحمده، وأستغفر الله، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله، هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن، بيده الخير، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير» (١٣٤٦) وتأويله على هذا: أن لله

١٣٤٦ ـ أخرجه أبو يعلى في مسنده، وما في تخريج الزيلعي (٣/ ٢٠٧)، والعقيلي في الضعفاء (١/ ١١٧ ـ ١١٨)، رقم (١٤٠) وأعله بأغلب بن تميم الكندي وقال: لا يتابع عليه.
وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢٠٧) لابن أبي حاتم وللثعلبي، ولابن مردويه في تفاسيرهم، وكذا للبيهقي في كتاب الأسماء والصفات، ولابن الجوزي في كتابه الموضوعات، وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه أبو يعلى وابن أبي حاتم، والعقيلي، والبيهقي في الأسماء والطبراني في الدعاء كلهم من رواية أغلب بن تميم حدثنا مخلد أبو الهذيل عن عبد الرحيم، وعبد الرحمن بن عدي عن عبد الله بن عمر به، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات من هذا الوجه. وله وجه آخر عند ابن مردويه. من طريق كلب بن وائل عن عمر، ورواه ابن مردويه عن الطبراني بإسناد آخر إلى =

هذه الكلمات يوحد بها ويمجد، وهي مفاتيح خير السمٰوات والأرض، من تكلم بها من المتقين أصابه، والذين كفروا بآيات الله وكلمات توحيده وتمجيده، أولئك هم الخاسرون.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ منصوب بأعبد. و﴿تَأْمُرُوٓنِّىٓ﴾ اعتراض. ومعناه: أفغير الله أعبد بأمركم، وذلك حين قال له المشركون: استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك. أو ينصب بما يدل عليه جملة قوله: ﴿تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾ لأنه في معنى تعبدونني وتقولون لي: اعبد، والأصل: تأمرونني أن أعبد، فحذف «أن» ورفع الفعل، كما في قوله: [الطويل]

أَلاَ أَيُّهٰذَا الزَّاجِرِي أَحْضُرُ الْوَغَى[1] ....

ألا تراك تقول: أفغير الله تقولون لي: أعبد، وأفغير الله تقولون لي: أعبد، فكذلك أفغير الله تأمرونني أن أعبده. وأفغير الله تأمرونني أن أعبد، والدليل على صحة هذا الوجه: قراءة من قرأ (أعبد) بالنصب. وقرئ: «تأمرونني» على الأصل. و«تأمروني»، على إدغام النون أو حذفها.

﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

قرئ: «ليحبطن عملك» وليحبطنّ: على البناء للمفعول. ولنحبطنّ، بالنون والياء، أي: ليحبطنّ الله أو الشرك. فإن قلت: الموحى إليهم جماعة، فكيف قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ على التوحيد؟ قلت: معناه أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك، وإلى الذين من قبلك مثله، أو أوحي إليك وإلى كل واحد منهم: لئن أشركت كما تقول: كسانا حلة، أي: كل واحد منّا. فإن قلت: ما الفرق بين اللامين؟ قلت: الأولى موطئة للقسم المحذوف، والثانية لام الجواب، وهذا الجواب سادّ مسدّ الجوابين، أعني: جوابي القسم والشرط، فإن قلت: كيف صحّ هذا الكلام مع علم الله أنّ رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم؟ قلت: هو على سبيل الفرض، والمحالات يصحّ فرضها لأغراض، فكيف بما ليس بمحال؟ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] يعني على سبيل الإلجاء، ولن يكون ذلك لامتناع الداعي إليه ووجود الصارف عنه. فإن

= ابن عباس: «إن عثمان ـ فذكره» وفيه سلام بن وهب الجندي عن أبيه ولا أعرفهما. انتهى

---

(١) تقدم.

قلت: ما معنى قوله: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾؟ قلت: يحتمل ولتكونن من الخاسرين بسبب حبوط العمل. ويحتمل: ولتكونن في الآخرة من جملة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم إن مت على الردة. ويجوز أن يكون غضب الله على الرسول أشدّ، فلا يمهله بعد الردة، ألا ترى ٢/١٤٨أ إلى قوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٥]، ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ رد لما أمروه به من استلام بعض آلهتهم، كأنه قال: لا تعبد ما أمروك بعبادته، بل إن كنت عاقلاً فاعبد الله، فحذف الشرط وجعل تقديم المفعول عوضاً منه.[1] ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ على ما أنعم به عليك، من أن جعلك سيد ولد آدم. وجوّز الفراء نصبه بفعل مضمر هذا معطوف عليه، تقديره: بل الله أعبد فاعبد.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾

لما كان العظيم من الأشياء إذا عرفه الإنسان حق معرفته وقدره في نفسه حقّ تقديره وعظمه حق تعظيمه قيل: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ وقرئ بالتشديد على معنى: وما عظموه كنه تعظيمه، ثم نبههم على عظمته وجلالة شأنه على طريقة التخييل فقال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله لا غير، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين[2] إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز، وكذلك حكم ما يروى: أن

---

(١) قال محمود: «أصل الكلام: إن كنت عابداً فاعبد الله، فحذف الشرط وجعل تقديم المفعول عوضاً منه. اهـ كلامه، قال أحمد: مقتضى كلام سيبويه في أمثال هذه الآية: أن الأصل فيه فاعبد الله. ثم حذفوا الفعل الأول اختصاراً، فلما وقعت الفاء أولاً استنكروا الابتداء بها، ومن شأنها التوسط بين المعطوف والمعطوف عليه، فقدموا المفعول وصارت متوسطة لفظاً ودالة على أن ثم محذوفاً اقتضى وجودها، ولتعطف عليه ما بعدها وينضاف إلى هذه الغاية في التقديم فائدة الحصر، كما تقدم من إشعار التقديم بالاختصاص.

(٢) قال محمود: «الغرض من هذا الكلام تصوير عظمته تعالى والتوقيف على كنه جلاله من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز، وكذلك حكم ما يروى عن رسول الله ﷺ: أن حبراً جاء إليه فقال: يا أبا القاسم، إن الله يمسك السموات يوم القيامة على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع وسائر الخلق على أصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ وتعجب مما قال الحبر، ثم قرأ هذه الآية تصديقاً له، فإنما ضحك أفصح العرب لأنه لم يفهم منه إلا ما فهمه علماء البيان من غير تصوير إمساك ولا هز ولا شيء من ذلك، ولكن فهمه وقع أول شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة التي لا يوصل السامع إلى الوقوف عليها إلا إجراء العبارة على مثل هذه الطريقة من التخييل، ثم قال: وأكثر كلام الأنبياء والكتب السماوية وعليتها تخييل قد زلت فيه الأقدام قديماً. اهـ كلامه» قال =

جبريل[1] جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا أبا القاسم، إن الله يمسك السمٰوات يوم القيامة على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع والثرى على أصبع وسائر الخلق على أصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ تعجباً مما قال، ثم قرأ تصديقاً له: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ . . . الآية (١٣٤٧)، وإنما ضحك: أفصح العرب ﷺ وتعجب؛ لأنه لم يفهم منه إلاّ ما يفهمه علماء البيان من غير تصوّر إمساك ولا أصبع ولا هزّ ولا شيء من ذلك، ولكن فهمه وقع أوّل شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة، وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأفهامَ والأذهان ولا تكتنهها الأوهام هينة عليه هواناً لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه، إلا إجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخييل، ولا ترى باباً في علم البيان أدقّ ولا أرقّ ولا ألطف من هذا الباب، ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء، فإنّ أكثره وعليته[2] تخييلات قد زلت فيها الأقدام قديماً، وما أوتي الزالون[3] إلاّ من قلة عنايتهم بالبحث والتنقير، حتى

- - - - - - - - - - - - - - - - -

١٣٤٧ ـ أخرجه البخاري (١٥/ ٣٤٨)، كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿لما خلقت بيدي﴾، رقم (٧٤١٤)، (١٥/ ٤٤٤)، كتاب: التوحيد، باب: «كلام الرب عز وجل يوم القيامة»، رقم (٧٥١٣) (٩/ ٥١٤)، كتاب التفسير، باب: قوله: «وما قدروا الله حق قدره» رقم (٤٨١١).
ومسلم (٩/ ١٤٢ ـ ١٤٣)، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، ١٩ ـ (٢٧٨٦).
والترمذي (٥/ ٣٧١)، كتاب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الزمر، رقم (٣٢٣٨ ـ ٣٢٣٩).
والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٠٠)، كتاب النعوت، رقم (٧٦٨٧/ ١).
وأحمد (١/ ٤٥٧).
والطبري في تفسيره (١١/ ٢٥)، رقم (٣٠٢١٧)، (٣٠٢١٩) والبغوى في تفسيره (٤/ ٨٧)، رقم (٦٧).
وابن حبان (١٦/ ٣١٩ ـ ٣٢٠)، كتاب: إخباره ﷺ عن مناقب الصحابة، باب: إخباره ﷺ عن البعث وأحوال الناس. كلهم من طريق ابن مسعود.
قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

= أحمد: إنما عنى بما أجراه ههنا من لفظ التخييل التمثيل، وإنما العبارة موهمة منكرة في هذا المقام، لا تليق به بوجه من الوجوه، والله أعلم.

(١) قوله: «أن جبريل جاء إلى رسول الله» قيل: الصواب أنه حبر من أحبار اليهود لا جبريل. ويدل عليه ما في البخاري ومسلم والترمذي، كذا بهامش. ويؤيده أن «يا أبا القاسم» عادة اليهود في ندائه ﷺ. (ع) متفق عليه من حديث ابن مسعود. (تنبيه) وقع عنده أن جبريل وهو تصحيف. والذي في الصحيح «جاء حبر من اليهود» وفي رواية «أن يهودياً» وفي رواية «أن رجلاً من أهل الكتاب».

(٢) قوله: «وعليته» أي معظمه. (ع).

(٣) قوله: «وما أتى الزالون» أي أجيبوا (ع).

يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علماً لو قدَّروه حق قدره لما خفي عليهم أنّ العلوم كلها مفتقرة إليه وعيال عليه؛ إذ لا يحل عقدها الموربة ولا يفك قيودها المكربة إلا هو، وكم آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول، وقد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثة[1]، والوجوه الرثة، ؛لأنّ من تأول ليس من هذا العلم في عير ولا نفير، ولا يعرف قبيلاً منه من دبير[2]. والمراد بالأرض: الأرضون السبع، يشهد لذلك شاهدان، قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ وقوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ ولأنّ الموضع موضع تفخيم وتعظيم، فهو مقتض للمبالغة، ومع القصد إلى الجمع وتأكيده بالجميع أتبع الجميع مؤكدة قبل مجيء الخبر؛ ليعلم أوّل الأمر أن الخبر الذي يرد لا يقع عن أرض واحدة، ولكن عن الأراضي كلهن. والقبضة: المرة من القبض ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [طه: ٩٦] والقبضة ـ بالضم ـ: المقدار المقبوض بالكف، ويقال أيضاً: أعطني قبضة من كذا: تريد معنى القبضة تسمية بالمصدر، كما روي: أنه نهى عن خطفة السبع[3] (١٣٤٨). وكلا المعنيين محتمل. والمعنى: والأرضون جميعاً قبضته، أي: ذوات قبضته يقبضهن قبضة واحدة، يعني أنّ الأرضين مع عظمهن وبسطهن لا يبلغن إلاّ قبضة واحدة من قبضاته، كأنه يقبضها قبضة بكف واحدة، كما تقول: الجزور أكلة لقمان، والقلة جرعته، أي: ذات أكلته وذات جرعته؛ تريد: أنهما لا يفيان إلا بأكلة فذة من أكلاته، وجرعة فردة من جرعاته. وإذا أريد معنى القبضة فظاهر؛ لأنّ المعنى: أنّ الأرضين بجملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة. فإن

١٣٤٨ ـ جاء من حديث أبي الدرداء، وأبي ثعلبة الخشني، وابن عباس، فأما حديث أبي الدرداء: أخرجه أحمد (٥/ ١٩٥)، (٦/ ٤٤٥)، وأما حديث أبي ثعلبة الخشني، أخرجه الدارمي (٢/ ٨٥)، كتاب الأضاحي، باب: ما لا يؤكل من السباع.
وأما حديث ابن عباس: فأخرجه أحمد (١/ ٢٤٤، ٢٨٩، ٣٠٢)، والدرامي (٢/ ٨٥)، كتاب الأضاحي، باب: ما لا يأكل من السباع، وأبو يعلى (٤/ ٣٧٣) رقم (١٦٤)، (٢٤٩١).
وقال الحافظ ابن حجر: لم أجده هكذا، وروى أحمد وإسحاق، وأبو يعلى من رواية سهل عن عبد الله بن يزيد عن شيخ لقيه سعيد بن المسيب، أنه سمع أبا الدرداء، يقول: «نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل خطفة ونهبة والمجثمة وكل ذي ناب من السباع»، ورواه أبو يعلى من رواية الإفريقي. ورواه الدارمي والطبراني والنسائي في الكنى من رواية أبي أوس عن الزهري عن أبي إدريس عن أبي ثعلبة، بلفظ: «نهى عن الخطفة والمجثمة والنهبة. وكل ذي ناب من السباع». انتهى.

---

(١) قوله: «بالتأويلات الغثة» في الصحاح «الغث» نبت يختبز حبه ويؤكل في الجوع، وتكون خبزته غليظة شبيهة بخبز الملة. (ع).
(٢) قوله: «قبيلا منه من دبير» في الصحاح «القبيل»: ما تقبل به المرأة من غزلها حين تفتله. وفيه «الدبير»: ما تدبر به المرأة من غزلها حين تفتله. ومنه قيل: فلان ما يعرف قبيلا من دبير. (ع).
(٣) قوله: «نهى عن خطفة السبع» أي: والمراد مخطوفه. (ع).

قلت: ما وجه قراءة من قرأ «قبضته» بالنصب؟ قلت: جعلها ظرفاً مشبهاً للمؤقت بالمبهم: ﴿مَطْوِيَّتُ﴾ من الطي الذي هو ضدّ النشر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وعادة طاوي السجل أن يطويه بيمينه، وقيل: قبضته: ملكه بلا مدافع ولا منازع، وبيمينه: بقدرته. وقيل: مطويات بيمينه مفنيات بقسمه؛ لأنه أقسم أن يفنيها، ومن اشتم رائحة من علمنا هذا فليعرض عليه هذا التأويل؛ ليتلهى بالتعجب منه ومن قائله، ثم يبكي حمية لكلام الله المعجز بفصاحته، وما مني[1] به من أمثاله؛ وأثقل منه على الروح، وأصدع للكبد تدوين العلماء قوله، واستحسانهم له، وحكايته على فروع المنابر، واستجلاب الاهتزاز به من السامعين. وقرئ: «مطويات» على نظم السمٰوات في حكم الأرض، ودخولها تحت القبضة، ونصب مطويات على الحال. ﴿سُبْحَنَهُۥ وَتَعَلَىٰ﴾ ما أبعد من هذه قدرته وعظمته، وما أعلاه/ ٢/١٤٨ب عما يضاف إليه من الشركاء.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

فإن قلت: ﴿أُخْرَىٰ﴾ ما محلها من الإعراب؟ قلت: يحتمل الرفع والنصب: أما الرفع فعلى قوله: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة﴾[2] [الحاقة: ١٣] وأما النصب فعلى قراءة من قرأ: ﴿نفخة واحدة﴾ [الحاقة: ١٣] والمعنى: ونفخ في الصور نفخة واحدة، ثم نفخ فيه أخرى؛ وإنما حذفت لدلالة أخرى عليها، ولكونها معلومة بذكرها في غير مكان. وقرئ: «قياماً ينظرون»: يقلبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب. وقيل: ينظرون ماذا يفعل بهم. ويجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف والجمود في مكان لتحيرهم.

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قد استعار الله عزّ وجلّ النور للحق والقرآن والبرهان في مواضع من التنزيل، وهذا من ذاك. والمعنى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ بما يقيمه فيها من الحق والعدل، ويبسطه من القسط في

---

(١) قوله: «وما مني به» أي ابتلي. (ع).

(٢) قوله: «أما الرفع فعلى قوله: «فإذا نفخ» أي في الحاقة. وقوله: «من قرأ» أي: هناك. وقوله: «حذفت» أي هنا. (ع).

الحساب ووزن الحسنات والسيئات، وينادي عليه بأنه مستعار إضافته إلى اسمه؛ لأنه هو الحق العدل. وإضافة اسمه إلى الأرض؛ لأنه يزينها حيث ينشر فيها عدله، وينصب فيها موازين قسطه، ويحكم بالحق بين أهلها، ولا ترى أزين للبقاع من العدل، ولا أعمر لها منه. وفي هذه الإضافة أن ربها وخالقها هو الذي يعدل فيها، وإنما يجور فيها غير ربها، ثم ما عطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب والمجيء بالنبيين والشهداء والقضاء بالحق وهو النور المذكور. وترى الناس يقولون للملك العادل: أشرقت الآفاق بعدلك، وأضاءت الدنيا بقسطك، كما تقول: أظلمت البلاد بجور فلان. وقال رسول الله ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة» (١٣٤٩) وكما فتح الآية بإثبات العدل، ختمها بنفي الظلم. وقرئ: «وأُشرقت» على البناء للمفعول، من شرقت بالضوء تشرق: إذا امتلأت به واغتصت. وأشرقها الله، كما تقول: ملأ الأرض عدلاً وطبقها عدلاً. و﴿ٱلْكِتَـٰبِ﴾ صحائف الأعمال، ولكنه اكتفى باسم الجنس، وقيل: اللوح المحفوظ. ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ الذين يشهدون للأمم وعليهم من الحفظة والأخيار. وقيل: المستشهدون في سبيل الله.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾

الزمر: الأفواج المتفرقة بعضها في أثر بعض، وقد تزمروا[1]، قال [من الرجز]:

١٣٤٩ ـ أخرجه البخاري (٥/ ١٢٠ ـ ١٢١) كتاب المظالم: باب الظلم ظلمات يوم القيامة حديث (٢٤٤٧) وفي «الأدب المفرد» رقم (٤٨١) ومسلم (٤/ ١٩٩٦) كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم حديث (٥٧/ ٢٥٧٩) وأحمد (٢/ ١٣٧، ١٤٦) والبيهقي (٦/ ٩٣) كتاب الغصب: باب تحريم الغصب والبغوي في «شرح السنة» (٧/ ٣٦٤ ـ بتحقيقنا) كلهم من طريق عبد الله بن دينار عن ابن عمر مرفوعاً وللحديث شاهد من حديث جابر بلفظ: اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة.
أخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٦) كتاب البر والصلة: باب تحريم الظلم حديث (٥٦/ ٢٥٧٩) والبخاري في «الأدب المفرد» رقم (٤٧٩) وأحمد (٣/ ٣٢٣) من طريق عبيد الله بن مقسم عن جابر به.
وله شاهد أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو أخرجه أحمد (٢/ ١٥٩) عنه مرفوعاً بلفظ: الظلم ظلمات يوم القيامة وإياكم والفحش... وقال الحافظ ابن حجر: متفق عليه من حديث ابن عمر، ولمسلم عن جابر، والنسائي، وأبي داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. انتهى.

---

(١) قوله: «وقد تزمروا» وفي نسخة أخرى: تزامروا. وفي الصحاح: احزألت الإبل في السير: ارتفعت. (ع).

حَـتَّـى ٱحْـزَأَلَّـتْ زُمَـرٌ بَـعْـدَ زُمَـرْ[1]

وقيل في زمر الذين اتقوا: هي الطبقات المختلفة: الشهداء، والزهاد، والعلماء، والقرّاء وغيرهم. وقرئ: «نذر منكم» فإن قلت: لم أضيف إليهم اليوم؟ قلت: أرادوا لقاء وقتكم هذا، وهو وقت دخولهم النار لا يوم القيامة. وقد جاء استعمال اليوم والأيام مستفيضاً في أوقات الشدّة ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أتونا وتلوا علينا، ولكن وجبت علينا كلمة الله لأملأنّ جهنم، لسوء أعمالنا، كما قالوا: غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين. فذكروا عملهم الموجب لكلمة العذاب وهو الكفر والضلال. واللام في المتكبرين للجنس؛ لأنّ ﴿مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ فاعل بئس، وبئس فاعلها: اسم معرف بلام الجنس. أو مضاف إلى مثله، والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: فبئس مثوى المتكبرين جهنم.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿حَتَّىٰٓ﴾ هي التي تحكى بعدها الجمل، والجملة المحكية بعدها هي الشرطية، إلاّ أنّ جزاءها محذوف، وإنما حذف لأنه في صفة ثواب أهل الجنة، فدلّ بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف، وحق موقعه ما بعد خالدين. وقيل: حتى إذا جاءوها، وفتحت أبوابها، أي: مع فتح أبوابها. وقيل: أبواب جهنم لا تفتح إلاّ عند دخول أهلها فيها. وأما أبواب الجنة فمتقدم فتحها، بدليل قوله: ﴿جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾ [ص: ٥٠] فلذلك جيء بالواو، كأنه قيل: حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها. فإن قلت: كيف عبر عن الذهاب بالفريقين جميعاً بلفظ السوق؟ قلت: المراد بسوق أهل النار: طردهم إليها بالهوان والعنف، كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل. والمراد بسوق أهل الجنة: سوق مراكبهم؛ لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين، وحثها إسراعاً بهم إلى دار الكرامة والرضوان، كما يفعل بمن يشرف ويكرّم من الوافدين على بعض الملوك، فشتان ما بين السوقين. ﴿طِبْتُمْ﴾ من دنس المعاصي. وطهرتم من خبث الخطايا، ﴿فَٱدْخُلُوهَا﴾ جعل دخول الجنة مسبباً عن الطيب والطهارة، فما هي إلاّ دار

---

(١) إن العفاة بالسيوب قد غمر حتى احزألت زمر بعد زمر

«السيوب» في الأصل: السيول، استعيرت للعطايا الكثيرة على طريق التصريحية. والغمر: ترشيح، أي: طلاب الرزق قد عمهم الممدوح بالعطايا. واحزألت: ارتفعت سائرة من عنده «زمر»: أي أفواج بعد أفواج ويروى: زمراً، على الحال، أي: احزألت العفاة حال كونها أفواجاً متتابعة. وعلى الأول ففيه إظهار في موضع الإضمار، دلالة على التكثير.

الطيبين ومثوى الطاهرين؛ لأنها دار طهرها الله من كل دنس، وطيبها من كل قذر، فلا ٢/ ١٤٩أ يدخلها إلاّ مناسب لها موصوف بصفتها، فما أبعد أحوالنا من تلك المناسبة، وما أضعف سعينا في اكتساب تلك الصفة، إلاّ أن يهب لنا الوهاب الكريم توبة نصوحاً، تنقي أنفسنا من درن الذنوب، وتميط وضر هذه القلوب. ﴿خَٰلِدِينَ﴾ مقدرين الخلود ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ عبارة عن المكان الذي أقاموا فيه كما يشاءون، تشبيهاً بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه واتساعه فيه، وذهابه في إنفاقه طولاً وعرضاً. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿حَيْثُ نَشَآءُ﴾؟ وهل يتبوأ أحدهم مكان غيره؟ قلت: يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة، فيتبوأ من جنته حيث يشاء ولا يحتاج إلى جنة غيره.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿حَآفِّينَ﴾ محدقين من حوله ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يقولون: سبحان الله والحمد لله، متلذذين لا متعبدين. فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله: ﴿بَيْنَهُم﴾؟ قلت: يجوز أن يرجع إلى العباد كلهم، وأن إدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة لا يكون إلاّ قضاء بينهم بالحق والعدل، وأن يرجع إلى الملائكة، على أن ثوابهم ـ وإن كانوا معصومين جميعاً ـ لا يكون على سنن واحد، ولكن يفاضل بين مراتبهم على حسب تفاضلهم في أعمالهم، فهو القضاء بينهم بالحق. فإن قلت: قوله: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ من القائل ذلك؟ قلت: المقضي بينهم إما جميع العباد وإما الملائكة، كأنه قيل: وقضى بينهم بالحق، وقالوا: الحمد لله على قضائه بيننا بالحق، وإنزال كل منا منزلته التي هي حقه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله رجاءه يوم القيامة وأعطاه الله ثواب الخائفين الذي خافوا»

عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر (١٣٥٠).

١٣٥٠ ـ أخرجه الترمذي (٥/ ٤٧٥)، كتاب الدعوات، باب: ما جاء فيمن يقرأ القرآن عند المنام، رقم (٣٤٠٥)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٤)، كتاب: التفسير، باب: سورة الزمر رقم (١١٤٤٤/ ١)، والحاكم (٢/ ٤٣٤)، كتاب التفسير، باب: تفسير سورة الزمر، والبيهقي في الشعب (٢/ ٤٨٢ ـ ٤٨٣)، الباب التاسع عشر، باب: ذكر سورة بني إسرائيل والزمر، رقم (٢٤٧٠)، كلهم من طريق عائشة، وعزاه الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (٣/ ٢١١) لإسحاق بن راهويه في مسنده. وقال الحافظ ابن حجر: أخرجه النسائي من رواية حماد بن زيد عن أبي أمامة عن عائشة في أثناء حديث، وأخرجه أحمد وإسحاق، وأبو يعلى والترمذي والحاكم والبيهقي في الشعب في التاسع عشر من هذا الوجه. انتهى.